مدخـــــل

ما هو الشعر ؟ سؤال من الأفضل ان يظل بلا اجابة حتى لانجازف باقتراح تعريف يحاول ان يقيس الافق وان يحلل زرقة البحر وان يصف صوت العصافير فى الربيع وخفقات القلب فى حضرة المحبوب وحرقه الاكباد عند فراق الاحباب . من الأفضل بدلا من تعريف السـباحة أن نسبح معـاً فى المياه الدافئة المعطرة التى تتدفق من سماء المتنبى وابى تمام وأبى العلاء المعرىء وقيس بن الملوح وسواهم . ان هذه المختارات التى اقدمهـا للقارىء هى فى المقام الأول نوع من التعاطف مع القارىء فى الاقتراب من منابع تراثنا الشعرى من خلال اعذب نماذجه وأصدقها فى نفس الوقت ـ لقد خاض الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الاربعـاء جدلا مع رفيق متوهم حول جدوى الشعر القديم واظنه كان يتوجه بحديثه هذا الى عامة القراء الذين لا يسيغون لغة غير لغة عصرهم لسبب بسيط هو ان خاصة المثقفين والادباء يقرون بجمال هذا الشعر القديم من اعماق وجدانهم قال عميد الأدب العربى :

ـ « انما امر الأدب القديم عندى اشبه بحديقة طال عليها الزمن واهملت اهمـالا متصـلا ولم تنقطع عنها بعد ذلك مادة الحياة فمضت اشجارها وشجيراتها تنمو فى غير نظام هذا النمو المهمل المضطرب حتى اختلط امرها اختلاطا شديدا وحتى اصبح من العسير عليك وعلى امثالك ان تجدوا فيه سبيلا الى ماتحبون من النزهة والراحة الى جمال الزهـر والشجر فأنتم قد الفتم الحدائق التى يتعهدها البستانى اذا اصبح ويتعهدها اذا امسى وينسقها لكم تنسيقا » .

وقد كان الدكتور طه حسين رائد الدعوة الى التريض بين حدائق الشعر القديم ونحن نتبعه فى هذه الدعوة التى تقترب بنا من مصـادر وجودنا الادبى ولكننا لا نذهب الى تراثنا لنتريض فقط بل لنحصل على غذائنا الضرورى للبقاء عربا فى عالم اكتسح القوميات والاجناس وصبغ الادب فى العالم كله بصبغة الحضارة الأوربية ان التوغل فى الماضى والنظر بثبات الى الامام البعيد هو وسيلتنا لجعل ذاتيتنا فعالة وايجابيـة . وربما يبدو اختيارى لهذه النصوص الرائعة غير منهجى من الناحية الأدبية أو من الناحية التاريخيـة ولكن ماجدوى المنهج ما دامت الحديقة كلهـا عامرة بالثمار الطيبة . ولقد وقفت أمام آثارنا متعاطفا معجبا شديد التحيز لها دون ان افتعل منظارا عصريا للنظر اليها . ولا شك ان هذه المختارات وسير شعرائها انما توجد فى معظم كتب المختارات وربما قدمت من قبل الى القارىء بطريق أو بأخرى ولكن قراءتى لهذه الآثار تأخذ مذاقهـا الخاص من تجربتى المتواضعة فى الفهـم والعرض والتحليل وهى تجربة

تنبع من الحب والقلب اكثر مما تبع من الدراسة الاكاديمية العسيرة ولقد انعش روحى وايقظ وجدانى هذا التجوال فى عصور هؤلاء الشعراء ولاعرف وقع هذه الرحلة ايها القارىء عليك قد تخرج من الهجير الى الصتيع من جمال الربيع الى ذبول الشتاء وقد تلفحك انفاس العشاق الذين اكتوت قلوبهم بالهجر والفراق وقد تجد ذلك ممتعا او شاقا او عاديا ولكن هذا حصاد رحلتى وهو حصاد يقدم لآلىء نادرة من خلال الربط بينها وبين اصحابها الذين كابدوا الحياة قبل ان يكابدوا الابداع ومنهم من كانت حياته ذاتها عملا مأساويا لاتستوعبه القصائد الصغيرة المفردة وانما قد تلمس حقيقته أعمال درامية كبرى مثل حياة الطغرائى التى كانت نموذجا طاغيا لقسوة الطموح وبطشه طموح أفقد النفس مذاق الحياة الانسانية بطيباتها المتاحة واوقعه فى الخوف الدائم والحذر الطائش والاصرار الجنونى على رغبة كان فيها هلاكه . حتى جاءت قصيدته لامية العجم تحمل أقسى وصف للعصر الذى عاش فيه وتنطوى على سوء الظن بالبشر أجمعين اصدقاء واعداء الاقارب والا باعد على السواء حتى ليقول :

أعدى عدوك من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

ان هذه الرؤية الفكرية التى تنبع من معاناة الذات الأايمة من الآخرين ولا تعترف بدورها هى فى خلق هذه المعاناة هى رؤية قريبة من رؤية أبى الطيب المتنبى الذى كان طموحا الى اقصى حدود الطموح ونال اقسى مصير على طموحه هذا وموقفه المتشكك والمتعالى من المجتمع الذى عاش فيه . وان كان المتنبى يفترق عن الطغرائى فى انه كان صعبا ولم يصل ابدا الى هدفه بينما الطغرائى وصل الى سدة الوزارة التى عاش حياته كلها يحلم بها ، ان مأساوية حياة ونهاية هذين الشاعرين تتجلى فى هذه المختارات بصورة واضحة بين القصائد الأخرى التى تنطوى تحت دموع الرثاء أو تأوهات العشاق . ولقد اتيح لى ايضا ان اجلو وجه هذه القصيدة الجميلة لكعب بن سعد الغنوى . هذه القصيدة التى تسفر عن صفات الفارس العربى النبيل فى سلوكه اليومى ومقصده من الحياة وتجاوزه لتفاهات المغانم الصغيرة وليس بغريب ان يكون الشعر بعد ذلك ديوان العرب فهو ليس مفخرتهم اللسانية فحسب ولكنه بحر الوجود العربى المترامى الشواطىء . حيث نعثر فيه على مخاوف هذا الوجود وتطلعاته ومغامراته واشواقه ولانهائيته وانعتاقه وعبوديته ايضا واذا كان لى ان اقدم هذه القراءات الشعرية مشفوعة برؤية تحليلية للعناصر الشعرية وللسيرة الذاتية لبعض الشعراء فان هدفى هو تأكيد الدعوة التى دعا اليها عميد الادب العربى من ناحية وتأكيد انتسابنا القوى الى تراثنا واعجابنا به ومحاولة جعله يمارس وجوده حيا بين حياتنا الراهنة دون ان يعنى هذا ان الحاضر يسلم الزمام للماضى ولا ان يشير الى الى ان الفردوس قابع فى العصور الاولى .واذا اتيح لى ان اكسب تعاطف القراء مع هذه المحاولة واحملهم على الرحيل معى الى عوالم هؤلاء الشعراء فقد ظفرت بما يفوق البغية من وراء تقديم هذا الكتاب .

محمد ابراهيم ابو سنه

« واحر قلباه »

لأبى الطيب المتنبى

واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمى وحالى عنده سقم

مالى اكتم حبا قد برى جسدى ... وتدعى حب سيف الدولة الأمم

ان كان يجمعنا حب لغرته ... فليت أنا بقدر الحب نقتسم

قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت اليه والسيوف دم

فكان احسن خلق كلهم ... وكان احسن مافى الاحسن الشيم

فوت العدو الذى يممته ظفر ... فى طيه أسف فى طيه نعم

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ... لك المهابة مالا تصنع البهم

الزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ... ان لا يواريهم ارض ولا علم

اكلما رمت جيشا فانثنى هربا ... تصرفت بك فى آثاره الهمم

عليك هزمهم فى كل معترك ... وما عليك بهم عار اذا انهزموا

اما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر ... تصافحت فيه بيض الهند واللمم

يا أعدل الناس الا فى معاملتى ... فيك الخصام وانت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة ... ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع اخى الدنيا بناظره ... اذا استوت عنده الانوار والظلم

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأننى خير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الاعمى الى ادبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

انام ملء جفونى عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصموا

وجاهل مده فى جهله ضحكى ... حتى أتته يد فراسة وفم

اذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن ان الليث يبتسم

ومهجة مهجتى من هم صاحبها ... ادركتها بجواد ظهره حرم

رجلاه فى الركض رجل واليدان يد ... وفعله ما تريد الكف والقدم

ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج البحر يلتطم

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

صحبت فى الفلوات الوحش منفردا ... حتى تعجب منى القور والاكم

يا من يعز علينا ان نفارقهم ... وجداننا كل شىء بعدكم عدم

ما كان اخلقنا منكم بتكرمة ... لو ان امركم من امرنا امم

ان كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح اذا ارضاكم الم

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... ان المعارف فى اهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ... انا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الذى عندى صواعقه ... يزيلن الى من عنده الديم

ارى النوى يقتضينى كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم

لئن تركن ضميرا عن ميا مننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... الا تفارقهم فالرحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الانسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم
بأى لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك الا انه مقة ... قد ضمن الدر الا انه كلم

صاحب هذه القصيدة هو شاعر العرب الاكبر احمد بن الحسين ابن عبد الصمد الجعفى المعروف بأبى الطيب المتنبىء ذاع اسمه فى آفاق عصره حتى كنت تلتقى بشعره فى اية أرض عربية تقصدها كما كانت شخصيته عونا كبيرا لهذا الشعر على الذيوع لتميز هذه الشخصية بصفات نادرة فى مقدمتها الكبرياء والطموح الغلاب وشهوة السلطان والملك فقد كان المتنبى شاعرا يعتقد انه خلق ليكون ملكا ويبدو ان هذا الاعتقاد مصدره معرفته الواسعة بشئون عصره وثقته المطلقة فى قدراته هذه القدرات التى جعل لها الشعر العظيم الذى سحر به المتنبى عصره قوة خاصة اقتحم بها الشاعر المدن والممالك والفلوات ظامئا الى تحقيق حلم يراه حقا بينما لم يكن فى الحقيقة اكثر من سراب. ولد المتنبى سنة ثلاث وثلاثمائة فى محلة يقال لها كنده بالكوفة وكانت الكوفة فى ذلك الوقت تعيش فترة قلقة بسبب ثورات القرامطة وتعج بالحركة الفكرية .
تعلم فى مدارس العلويين واتقن اللغة العربية من خلال ادمانه لحفظ الجيد من الشعر وقد اتصف منذ صغره بالذكاء الشديد وقوة ذاكرته أتم تعليمه فى بادية السماوة حيث تتلمذ على لغة البادية الجزلة الفصيحة الصحيحة وما ان اكتملت له ادوات الشاعر الذى وعى ثقافة عصره السياسية والفكرية حتى بدأ فى التجوال تلهبه هذه النار التى تدفعه لطلب المجد فاتجه الى الشام وظل يمدح بعض الاغنياء والامراء حتى كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فاهتدى الى سيف الدولة .وكان هذا الامير يجسد آمال الشاعر اعظم تجسيد فقد كان شابا شجاعا مغوارا يعمل على تدعيم حدود دولته بالاغارة على البيزنطيين ورد غاراتهم . وجمع سيف الدولة حوله صفوة علماء وادباء العصر يستمع اليهم باحساس عميق وكان على دراية باللغة بشعرها ونثرها يقدر الشعراء ويغريهم حتى جعل من دولته بلاطا للادب والسياسة والفكر ووجد المتنبى فى هذا الامير نموذجا لما ينشد لنفسه فلزمه تسع سنوات قال فيها اعظم شعره فى مديح هذا الامير سيف الدولة وهى القصائد التى عرفت بالسيفيات ولكن مكانة المتنبى وشعره اغرت به الاعداء من الشعراء الذين طغى عليهم مجد المتنبى فأحالهم الى مجرد اشباح لشعراء لا يطمعون فى اكثر من التواجد فى بلاط الامير لا ينتظرون مجداً ولا مالا فقد استولى المتنبى على كل ذلك فبداوا فى الكيد للشاعر العظيم حتى وجد المتنبى نفسه هدفا للنبال وتكاد هيبته تتعرض للمهانة بعد ان تهاون سيف الدولة فى دفع الاذى عنه وربما لأن سيف الدولة نفسه كان يضيق بالغرور الشديد الذى كان المتنبى لا يحاول اخفاء مظاهره بحال من الأحوال بل لقد كان كل من يرى المتنبى وهو ينشد سيف الدولة يرى فيه كبرياء الامير نفسه ولا شك ان هذه المظاهر كانت ذرائع منطقية ومقنعة

لهؤلاء الذين اولعوا بالدس والكيد لشاعر تياه يضع نفسه فوق الجميع وانتهى الموقف بالمتنبى بعد ان تدهور وضعه الادبى والنفسى الىمفارقة من يود الاقامة عنده ولكنكبرياءه الجريحة كانت تمده بالعزم علىمواصلة الرحلة الى مصر حيث يلمع سراب الامال مرة اخرى فى صحراء حياته ولعله ان يجد عند كافور الاخشيدى ما لم يجده فى كنف سيف الدولة ولقد كان يعتمد بالطبع على الخلافات السياسية القائمة فى ذلك الوقت بين هؤلاء الملوك والامراء . كان المتنبى يتوق الى ولاية ينصب نفسه اميرا عليها وذهب الى مصر ومدح كافور الاخشيدى وبالغ فى مدحه ولكن كافور خيب رجاءه فرحل مرة اخرى الى الكوفة يجرر اذيال الفشل والمرارة ثم رحل بعد ذلك الى فارس حيث تلقى دعوة من ابن العميد فرحل الى هناك ولكن الاقامة لم تطب له ويبدو انه قد سئم وضع نفسه فىخدمة الملوك وان كان قد تلقى دعوة ايضا منعضدالدولةالبويهىسلطان شيراز وكان شابا مثقفا جوادا ولكن المتنبى آثر الرحيل الى مسقط راسه فى الكوفة . وعبر طريق العودة تربص اعداء المتنبى به ليقتلوه بجبل دير العاقول ويقال ان احد اصدقائه قد حذره من الكمين الذى وضع له ولكن المتنبى ابى ان يحتاط للامر ثقة فى نفسه وهكذا اوقع به اعداؤه وقتلوه لتصمت هذه القيثاره الرائعة التى عزفت للشعر العربى اعظم قصائده .
ولكن موت المتنبى بهذه الصورة المأساوية والتى تضع نهاية درامية لحياة بالغة التوتر والقلق والجموح والكبرياء والمجد فتحت الباب امام حياة جديدة لشعره وربما كانت هذه الحياة الجديدة هى اخلد ما يطمح اليه شاعر فقد تنافست الاقلام فى تناول شعره وحياته وتحقق له حلم تقصر عنه أحلام الولايات والامارات والسلطة الزائلة .

تأتى هذه القصيدة من شعر المتنبى فى مرحلة من اخطر مراحل حياته من الناحية التاريخية فهى اعلان تحرقه الزفرات وتطرزه الدموع عن فراق المتنبى لسيف الدولة بعد تسع سنوات من المجد والشعر والحلم .
وهى مفتتح لعصر غامض مجهول سوف تغرب فى نهايته شمس حياة الشاعر ومن هنا فهذه القصيدة تمثيل لفن المتنبى فى قمة توهجه وابراز خصائصه لأنها تأتى فى مفترق طريق صعب كان على الشاعر ان يختار بين كبريائه وبين طمأنينة يتجرع خلالها الهوان وقد آثر الشاعر شأن الفرسان ان يغامر بالطمأنينة والراحة الذليلة لكى يضرب للحظ اشق الطرق . ولكن الشاعر وهو يأخذ قرارا خاصا بحياتهيكشف لنا فىشعره الصراع الحقيقى وراء الظاهر الذى ترصده العيون الساذجة . لقد كان سيف الدولة يرى فى شعره المتنبى مرآة نقية لبطولتهوفروسيتهوتألقمجده كلاهما كان يبقى على الاخر لأن كلا منهما يمنح الآخر الرضى عن نفسه.
ومن هنا رأينا قصيدة الفراق مشحونة بهذه اللوعة التى لا تكون الا بين المحبين حين يحكم عليهم سيف الفراق بالرحيل .

ان القصيدة تبدأ بهذه الزفرة المتصاعدة من الكلمات التى كان المتنبى يعرف دقائقها فهذه الواو الممدودة فى البداية تعطى ايحاء بالرغبة فى اعلان الشكوى وعدم القدرة على احتمالها وكأنه يفتتح مرثية اليمةوكيف لا وهى نبوءة مبكرة بما سيلاقيه المتنبى منفشلوضياع بعد هذا الزمنالمجيد الذى انقطع وتبدد . هو يشكو حرارة العاطفة والحب ازاء قلب بارد جـامد لا يكن حبا ولا شوقا . هى شكوى من السقم الذى سـاقه الحب ومن الجفاء الذىيسكن القلوبالقاسيةويبدو أن الايحاء كانغير شاف فآثر أن يصرح ويجهر بهذه المحبة القوية الكافية فى نفس الشاعر لسيف الدولة .
ان الشـاعر يواجه الوشاة الذين يكيدون له عند الامير باعـلان الحب كأساس للعدل فى العلاقة وهو مدخل فى غاية الذكاء والمهارة والقوة ولما كان اعلان الحب يستدعى على الفور صورة المحبوب فقد اورد الشاعر هذه الصورة . والمتنبى يتحدث عن حالين اسيف الدولة حالة السلم وحالة الحرب فكان فى الحالين احسن خلق الله كلهم .

قد زرته وسيف الهند مغمـدة وقد نظرت اليـه والسيوف دم

ان الشاعر هنـا يقول لنا انه يحب لانه يعرف محبوبه جيدا يعرفه وقد رآهمسالما ورآه محاربا فهو حب الخبرة وهو حب مبصر رشيد ثم ساق مديحه فى اطار البأس والقوة اللائقة بامير شجاع فارس يحمى ثغور الدولة العربية امام بيزانطة ولا شك أن المبالغة وهى عصب الشعر عند المتنبى كله قد اخذت بتلابيب هذه الابيات التى تبدأ بقوله .

فوت العدو الذى يممته ظفر فى طيـه اسف فى طيـه نعم

الى ان يقول :

عليك هزمهـم فى كل معترك وما عليك بهم عار اذا انهزموا

الى هنا نكون قد وقفنا مع الشاعر فى ثلاثة مواقف : الشكوى من ظلم المحبوب الذى لا يجازى على المحبة بمثلها ثم التصريح بهذا الحب المكنون الذى يتمنى الشاعر لو كان الحب اساس العدل وبقدر الحب يكون العطاء ثم هذا الوصف الخـارجى المألوف فى شعر المتنبى والذى يرتفع احيانا الى الذرا وقد تهبط به المبالغة احيانا الى حضيض الافتعال والتكلف تتصـل القصيدة بعد ان انقطعت بالاجـزاء الوصفية تتصـل العاطفة الجياشة واللوعة والحزن حين تخرج من صليل السيوف ومعارك سيف الدولة لتدخل الى صميم معركة المتنبى مع نفسه فى هذه القصيدة لقد باغ المتنبى ان بعض جلساء سيف الدولة يتقولون عايه فكانت هذه القصيدة صرخة عتاب ونبوءة خصام وعزما اكيدا على الفراق ولكنهقبل أن يفارق لابد ان يحارب معركته مع اعدائه اولا ومع سيف الدولة ثانيا ومع نفسه ثالثا : يتلطف الشاعر فى العتاب مقدما الحب كمهاد لدعواه وبلواه فى نفس الوقت : باعدل الناس الا فى معاملتى ، فيك الخصام

وانت الخصم والحكم ثم يتطرق الى هؤلاء الذين يكبدون له ان المتنبى يعد فى مقدمة هؤلاء الشعراء الذين يخلبون الالباب فى نفس الوقت الذى يسيطرون فيه على الاحساس بالوسائل الجمالية المتنوعة من خلال الالفاظ الجزلة النبيلة الملائمة والصورة الباهرة والموسيقى التى تزلزل الاذان بسحرها ولكن المتنبى الذى درس الفلسفة بملك شعره منطقا بالغ القوة والحسم مع صعوبة استخدام المنطق فى الشعر وهذا هو سر تفوق المتنبى الحقيقى بين الشعراء فهو قد مزج الحس والعقل معا بهذه القوة الخفية التى يملكها شعره . ولا شك ان ثقافة المتنبى الواسعة هى التى صنعت له هذه المقدرة الفائقة انه يضع المنطق الشعرى فى مقدمة حججه مع خصومه .

اعيذها نظرات منك صادقة　　ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره　　اذا استوت عنده الانوار والظلم

ثم يقول فى موضع آخر

اذا رأيت ثيوب الليث بارزة　　فلا تظنن ان الليث يبتسم

ان رسوخ ثقة المتنبى فى نفسه يهتز قليلا حين يطالعنا بهذه الابيات المباشرة الذاتية التى تعلن بشكل لا مدارة فيه عن غرور واضح ومبالغة متهافتة :

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا　　بأننى خير من تسعى به قدم
انا الذى نظر الاعمى الى أدبى　　واسمعت كلماتى من به صمم

ان هذه الثقة تهتز لأن المتنبى يشعر فى اعماقه ان سيف الدولة قد بدأ يعطى اذنه للوشاة والحساد الذين كان الغيظ من المتنبى وغروره يكاد يفتك بهم ورغم هذه المبالغة التى لا تقنع احدا بصدقها الا ان قوة الشاعرية فيها تجعل المتنبى بعيدا عن السخرية منه بسبب هذه الابيات وليس ادل على ذلك من شيوع هذه الابيات واستخدامها وجريانها مجرى الامثال والحكم فى بعض الاحيان ومن الذ ىلا يصدق المتنبى حين يقول .

الخيل والليل والبيداء تعرفنى　　والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويقال ان هذا البيت كان سببا فى قتله فقد حاول الهرب من مواجهة اعدائه عندما تربصوا له عند دير العاقول فقال له غلامه أتفر وانت القائل الخيل والليل الخ .

وتعود القصيدة بعد فاصل من الفخر الشديد والزهو الذى يدل على التعاسة الشديدة تعود القصيدة الى الصدق الفنى الى ذات الشاعر

المحاصرة بين الاعداء وهو يفكر جديا فى الرحيل عنهم وتتصل مرة اخرى العواطف والمشاعر الرقيقة الحزينة وتعود الابيات الى هدفها .

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شىء بعدكم عدم

اذن لقد كان المتنبى يضع صداقته بسيف الدولة فوق كل متاع محتمل من فراقه ويبدو ان فترة الاقامة المجيدة عند سيف الدولة قد الهته ولو بشكل مؤقت عن حلم حياته وهى الولاية والسلطان . انه يخاطبه بلغة خاشعة وصور تنهل من حب حقيقى وتجاوز عن كل شىء ما عدا هذه الصلة التى يراها المتنبى فى قوة وجوده ذاتها .

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكمو الم

ولكن الشاعر يلتفت فيرى حساده واعداءه عن يمين سيف الدولة ويساره ويراهم دائبين فى الانتقاص منه والبحث عن مثالبه ونشر عيوبه فيرمى اليهم بأحجاره . انهم فى شدة الغيظ من غروره وثقته بنفسه ولهذا فهو لا يجد ما يزيد من غيظهم ومن مضاعفة مرارتهم الا ان يبالغ فى هذا الغرور وتعظيم هذه الثقة بالنفس .

كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

والقصيدة تتابع صعودها وهبوطها . استقامتها وتلفتها الى الخلف واليمين واليسار ونقترب من نهايتها فيكشف المتنبى بعد ان صرح بالحب والكره والفخر والعتاب يكشف عن قراره التاريخى انه يضمر الرحيل عن هؤلاء القوم الذين اصبح يغص بينهم بطعامه ويشرق بمائه وكأنه يهىء ناقته للرحيل ويستعد لعبور الصحراء فى طريقه الى المجهول بعد ان تنفست احلامه فى صدره وتقدمت به السن فهو فى الثالثة والاربعين من عمره والامال بعيدة تطفح الابيات الاخيرة من القصيدة بالحسرة والندم والفخر والهجاء وكأنه فى الابيات السبعة الاخيرة يعيد ايجاز القصيدة كلها فهى بمثابة عرض مركز لعناصرها كلها انه يقول كلمته الاخيرة قبل ان يرحل .

أرى النوى يقتضينى كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم

الى ان يقول :

هذا عتابك الا انه قصة قد ضمن الدر الا انه كلم

لقد كان المتنبى دائما حريصا على انصاف نفسه وهو يرى الاخرين يسيئون الى مكانته العالية فكان يجازف براحته من اجل انقاذ كبريائه

ولقد جاءت قصيدته واحر قلباه واحدة من اصدق قصائده لانها صرخة يائس حائر ضائع واذا كان شعره قد رفع اسمه عاليا فقد كانت النار التى تبدع هذا الشعر تدفع به الى المعاناة القاسية والى مجابهة الاهوال وسواء كان النقاد قد انصفوه أو ظلموه حين عابوا عليه هرولته المستمرة وراء سراب الولايات وبريق السلطان المرواغ فان المتنبى كان صريع قدرة الذى الهب فى كيانه الجذوة المقدسة جذوة الشعر العظيم كما وضع فى هذه الكيان نفسه جذوة الطموح القاتل الذى ما كان بامكان الشاعر ان يغالبه ولا ان يكفكف من جموحه ذهب الشاعر وبقى الشعر—ومن يدرى ان حياة مختلفة عن حياته تلك كانت ستنجب لنا نفس هذا الشعر العظيم . رحم الله ابا الطيب المتنبى .

رثاء الجدة

لأبى الطيب المتنبى

القصـــــيدة

الا لا أرى الاحداث مدحـــا ولاذما　　فما بطشها جهلا ولاكفها حلمــــا
الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى　　يعود كمـــا ابدى ويكرى كما أرمى
لك الله من مفجوعة .. بحبيبهـــا　　قتيلة شوق غير ملحقها وصــــما
احن الى الكأس التي شربت بهـــا　　واهوى لمثواها التراب وماضــما
بكيت عليها خيفة فى حياتهـــــا　　وذاق كلانا ثكل صاحبه قدمــــا
ولـــو قتـــل الهجر المحبين كلهـــم　　مضى بلد باق أجـــدت لـــه صرما
عرفت الليالى قبل ما صنعت بنـــا　　فلما دهتنى لم تزدنى بها علمـــا
منافعهـــا ماضر فى نفـــع غيرهـــا　　تغذى وتروى ان تجوع وان تظما
اتاها كتابى بعد يأس وترحــــة　　فماتت سرورا بى نمت بها غمـــا
حـــرام على قلبـــى السرور فاننى　　اعد الذى ماتت به بعدها ســـما
تعجب من لفظى وخطى كأنمــــا　　تر ى بحروف السطر أغربة عصما
وتلثمــــه حتى اثـــــار مــداده　　محاجر عينيهـــا وانيابها ســـحما
رقا دمعها الجارى وجفت جفونها　　وفارق حبى قلبهـــا بعد ما ادمى
ولـــم يسلها الا المنايا وانمـــــا　　اشد من السقم الذى أذهب السقما
طلبت لها حظــــا ففاتت وفاتنى　　وقد رضيت بى لورضيت بها قسما
فاصبحت أستسقى الغمام لقبرها　　وقدكنت أستسقى الوغى والقنا الصما
وكنت قبيل الموت استعظم النوى فقد صارت الصغرى التى كانت الكبرى
هبينى أخذت الثأر فيك من العدى　　فكيف بأخذ الثــأر فيك من الحمى
وما انسدت الدنيـــا على لضيقها　　ولكن طرفا لا أراك به اعمـــــى
فـــوا اســـفا الا اكب مقبـــلا　　لرأسك والصدر الذى ملئا حزمـــا
والا الاقى روحــــك الطيب الذى　　كأن ذكى المسك كان له جســـــما
ولو لـــم تكونى بنت أكرم والـــد　　لكان أباك الضخم كونك لى امـــا
لئن لذ يوم الشـــــامتين بيومهـــا　　لقد ولدت منى لأنفهـــم رغمـــا
تغرب لامستعظما غير نفســـــه　　ولا قابلا الا لخـــالقه حكمـــا
ولا ســـــالكا الافؤاد عجاجـــة　　ولا واجـــدا الا لمكرمة طعمـــا
يقولون لى مـــا انت فى كل بلدة　　وما تبتغى؟ ما ابتغى جل ان يسمى
كأن بنيهـــم عالمون باننـــــى　　جلوب اليهم من معادنه اليتمـــا
وما الجمع بين الماء والنار فى يدى　　باصعب من أن اجمع الجد والفهما
ولكننى مســـتنصر بذبابـــــه　　ومرتكب فى كل حال به الغشـما

وجاعله يوم اللقـــــاء تحيتـــــى والا فلست السيد البطـــل القرما
اذا فل عزمى عن مدى خوف بعده فأبعد شىء ممكن لم يجد عزمـــــا
وانى لمن قـــوم كأن نفوســـــهم بها أنف أن تسكن اللحـــم والعظما
كذا أنايادنيا اذا اشــئت فاذهبى ويا نفس زيدى فى كرائهها قدمـــا
فلا عبرت بى ســـــاعة لا تعزنى ولا صحبتنى مهجـــة تقبل الظلما

شـــاعر هذه القصيدة هو ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفى المعروف فى تاريخ الادب العربى بالمتنبى وما من شاعر فى العربية حظى بمكانته الادبية وعلو شـــأنه فهو اكثر الشعراء اثارة للاهتمام والجدل والاختلاف والاتفاق يحبه الذين يحبونه بافراط يدنو من العشق ، ولا يستطيع من ينفر من عجبه الزائد بنفســـه الا الاحترام لفنه والتقدير لشـعره وقد يضعه النقاد والباحثون فى مقدمة شـــعراء العربية على الاطلاق وقد يقدم بعض الباحثين غيره عليه ولكن اجماع المتطرفين والمعتدلين منعقد حول وضعه فى الصدر الاول من قافـــلة الشعر العربى .

واذا كان شعر المتنبى بما يتميز به من فخامة وجلال وسطوة قد جعل منه محور الكثير من الدراسات العميقة المتقصية الا ان شخصيته الفريدة هى الأخرى كانت سببا قويا لدفع موجة الاهتمام به الى اماد بعيدة حقا .

ولد المتنبى بالكوفه عام ٣٠٣هـ . اى فى بداية العقد الرابــــع الهجرى وهو العقد الذى وصفه الباحثون وفى مقدمتهم الدكتور طـــه حسين بالاضطراب السياسى والاجتماعى والازدهار الفكرى . ولد فى محله كنده ونسب اليها ولقب بكندى وما ان ترعرع وادرك بعض شئون الدنيا حتى اغرم بعلوم العربية غراما شديدا كان نبوءة بمـــا يعتمل فى ذاته من موهبة كبيرة تستعد للعطاء الزاخر العظيم اختلفت الآراء حول نسبه وقد اغفل هو الحديث عن هذا النسب اغفالا يوحى بأنه لم يكن يفخر به وقيل ان اباه كان سقاء . يقول الدكتور طه حسين كان للمتنبى أب وجد ولكن المؤرخين والنسابين لا يعرفون من أمر جده قليلا ولا كثيرا ويكادون يختلفون فى اســـمه . اما ابوه فقد زعموا انهم كانو يعرفون عنه شيئا يسيرا جدا : كانوا يزعمون ان ابا المتنبى كان سقاء فى الكوفه تحدث المؤرخون بذلك وهم بين متحدث به يريد ان يرفع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فملأ الدنيا وشغل الناس وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان ابوه يبيـــع المـــاء على النـــــاس وكان هو يبيـــع مـــــاء وجهـــه على المدوحين وما اظن ان الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا الى اثبات الحق من حيث هو حق وتســـجيل التاريخ من حيث هو تاريخ وانما قصدوا الى ما ذكرت لك : الى الرفع من شأن المتنبى او الوضع من قدره فكانهم اذن لم يصنعوا شيئا وكانهم اذن لم يعرفوا من امر المتنبى الا ما عرفوا من امر جده اى لم يعرفوا شيئا ، ومهما يكن من

شيء فقد عرف المتنبى ان شفاء نفسه من تعلم اللغة لا يكون الا بالارتحال الى البادية فذهب الى بادية بنى كلب وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة اذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية . وقيل ان ابا الطيب قد ادعى النبوة فى هذه البادية وتبعه بعض الاعراب فخرج اليه لؤلؤ امير حمص وقبض عليه وسجنه فترة من الوقت ثم استتابه واطلقه . ولصقت به صفة المتنبى بعد خروجه من السجن ولازمته طوال حياته وسافرت بعد ذلك فى تاريخ الادب حتى الآن. وبعد خروج المتنبى من سجنه اتجه الى مدح الامراء والرؤساء وكان سيف الدولة الحمدانى يجتمع فى بلاطه بصفوة علماء وشعراء عصره . فقد كان حارس الحدود الشمالية للامة العربية فلحق به المتنبى عام ٣٣٧هـ واقام عنده تسع سنوات هى قمة حياته وشعره . كان سيف الدولة فارسا شجاعا محبا للعلم والادب وفيا للقيم العربية الاصيلة يعرف اقدار العلماء والشعراء ويصلهم ورأى فيه المتنبى صورة حية لما كان يتمناه لنفسه . كان المتنبى تواقا للامارة والسيادة يرى نفسه فوق الشعر والشعراء فكأنه رأى فى سيف الدولة حلما متجسدا لأمانيه وأشواقه ومن هنا كانت هذه الحرارة التى تضج بها قصائده وهذا الصدق الذى يهز نفس المتلقى لشعره . فقد كان حبه لسيف الدولة عظيما لثلاثة اسباب : اولا لانه فارس الأمة وحارس قيمها فهو رمز لمجموعةمن القيم التاريخية والانسانية كان المتنبى اول من يعرف قيمتها والسبب الثانى ان سيف الدولة كان النموذج الحى لطموح المتنبى فقد كان يرى فيه صورة من نفسه وكأنه وهو يمدحه انما يمدح نفسه من هنا هذهالعلاقة القوية التى قامت فى نفس وشعر المتنبى حتى لا يجد المرء فى هذا الشعر بوناشاسعا بين صورة الممدوح وصورة المادح فى رتبة المجد . والسبب الثالث ان المتنبى كان يتوسل بنفوذ اميره لكى يصل الى احلامه هو الخاصة وما يرجوه من مجد لنفسه . ولكن المقادير قد قوضت احلام الشاعر فى السلطة ودمرت علاقة المتنبى بسيف الدولة ولعبت الوشاية والحسد دورا فى المكيدة التى دفعت المتنبى الى مغادرة حلب عام ٣٤٦هـ متجها الى دمشق ثم بعد ذلك الىمصر حيث قصد كافور الاخشيدى الذى خيب اماله فمدحه وهجاه وتركه فى النهاية متسللا الى بغداد ثم الى بلاد فارس وشيراز مدح عضد الدولة بن بوية فاجزل عطيته ثم انصرف من عنده راجعا الى بغداد فالكوفة عام ٣٥٤هـ وفى الطريق تعرض له فاتك بن أبى جهل فقاتل الشاعر حتى قتل مع ولده وغلامه على مقربة مندير العاقولمن الجانب الغربىمن سواد بغداد — وبهذا اختتمت حياة هذا الشاعر التياه بنفسه وسط المخاطر التى كان يتحدث عنها كقدر ملازم له . وهذه النهاية مطابقة لحركة هذه النفس الجياشة بالقلق والتوتر والطموح فلم تعرف سكينة فى حياتها .

والقصيدة التى نحن بصددها قالها الشاعر فى رثاء جدته وتقول الروايات ان كتابا من جدته لامه قد ورد عليه وفى هذا الكتاب تشكو

الجدة لابن ابنتها المتنبى شوقا اليه وطول غيبته عنهـــا فتوجه
العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر الى بغـ
وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتـــابا يسألها المسير
فقبلت وضمته لقلبها سرورا به وغلب الفرح على قلبها فقتلها .
هذه القصيدة الصادقة التى تعتصرها اللوعة ويسيطر عليها الال
وقد ســئل اعرابى : ما بال المرثى اصدق اشعاركم قال لاننا نقو
واكبادنا تحترق .فهل كانت كبد المتنبى تحترق حين قال هذه القص
ان غربة الشاعر المتصلة واختفاء اسرته يجعل لهذه الجدة التى
ان صلته بها كانت عميقة مكانة كبيرة واساسية فى حياته فهى
الذى يربطه بأصله فى الدنيا . فهو يواجه كل يوم اعداء لشعره .
ومنافسه لشخصه بسبب اتجاهاته الفكرية وأحقادا تنمـو من
الذى يسببه اعتزازه بنفسه لدرجة تجعله على وشك احتقار الآ
ومن هنا كان لصوت الاسرة المتجسد فى نداء جدته وشــوقها الي
لهذا الصوت قداسة فى قلبه . لانه صوت يحمل له الحب ال
والعاطفة المجردة من الغرض والانتمــاء الحقيقى انتمــاء الدم
لا يعرف التغير . ان حنان هذه الجدة هو الذى جعل فقدانها
غاية الألم لنفس هذا الشاعر الذى اعتاد المخاطر وها هو يبدو
على صدر جدته . فليس ثمة شك فى أن المتنبى كان يحن وسط
المعارك الادبية والسياسية الى هذا الحنــان الدافق الذى تفيذ
قلوب الامهات والجدات والذى كان الشاعر اشد حاجــة اليه
الاحقاد التى تحيط به . والقصيدة تحمل كل خصائص المتنبى الف
ففى لغتها هذا الجلال الباهر الذى يتجلى فى حساسية الاختيار ا
للكلمة القوية الفنية بالالات والتى تلعب فى علاقاتهــا بالكلمات ا
وفى موقعها من الجملة دورا اساسيا فى بناء صورة شعرية تجم
الحسى والمعنوى فى حرارة وصـــدق وخيال بعيد قادر على الت
والادهاش والاقناع فى نفس الوقت وفى القصيدة هذه الموسيقى ا
الثقيلة الممتدة حيث اختار لها بحر الطويل بابعاده الواسعة . و
كذلك صوره القوية الجامحة التى تتجاوز الواقع الى التجريد فى
من المبالغة المسرفة احيانا والمعقولة أحيانا اخرى ولكن اهم ما
الى انتماء هذه القصيدة الى شاعرها المتنبى هو وجود الشاعر
كبريائه وفخره بنفسه . هذه الذاتية الواضحة التى كان ينتقل
الشاعر فى كل بقعة يرتحل اليها وفى كل قصيدة يقولها . حـ
قصيدة حزينة من قصائد الرثاء لا ينسى المتنبى نفسه وشجاعته
بنفسه . وتبدأ القصيدة ككل قصائد الرثاء بالتأمل الحزين فى طب
هذا الموت المفاجىء الذى يصيب الكائنات فيسلبها هذه الهبة الغ
المقدسة . الحياة — ان الشاعر يبدأ متماسكا يكاد يعلو على ا
ويكاد يلجأ لتعزية نفسه وهذا العزاء الذى يلجأ اليه انما هو
من خبرته بمصائب الدهر ونوائبه فهذه الاحداث الأليمة انما هى
غير منطقى وغير معقول خال من الارادة والقصد وهى بهذا لا تد
اللوم او الذم لأن اللوم والذم يقومان على معيارى الخير والشر
ينبعان من الارادة وما دامت هذه الاحداث خالية من القصد والارادة

لاتستحق الثناء او القدح . ثم يقرر الشاعر ان العدم هو الغاية وان النهاية هى نفسها البداية هذه الدورة الابدية التى تشمل الوجود والعدم فالمرء محكوم بالعودة الى ما كان عليه والى العدم اذن سوف يصير ولسوف ترجع الزيادة النقص من جديد . ان المتنبى لا يتمهل على اعتاب القصيدة فيلقى الينا بحكمته الثابتة المؤكدة التى اطلعته عليها خبرته بهذه الدنيا وبعد ذلك يذهب الى التفجع على هذه الجدة العزيزة . وهو يرى أن الشوق هو الذى قتلها شوقها اليه ومن هنا كانت لوعته . هذا الشوق البرىء الطاهر لأنه شوق الام الى ابنها او الجدة الى حفيدها . وها هو يحن الى الموت طلبا للقرب منها ويعشق التراب وما ضم فى احشائه من اجلها ويلجأ المتنبى لمبالغاته المعتادة فيرى ان هجرها كفيل بقتل البلد الذى رحلت عنه لو كان الهجر يقتل المحبين . ويؤكد من جديد معرفته بالليالى وما تجلبه من محن فهو لا يهتز ويكاد لايكترث فهو يرى ان هذه الداهية التى نزلت به بوفاة جدته لم تزده علما بما تصنعه الليالى . هو خبير مجرب ذاق حلو الايام ومرها ولعل مرها اكثر من حلوها لديه وهذا يذكرنا بنفس موقفه الذى يقول فيه :

وصرت اذا أصابتني سهام	تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي بالرزايا	لأنى ما انتفعت بأن ابالى

وها هو فن المتنبى يتجلى فى هذه المقابلة بين السرور والغم فى البيت الذى يقول فيه :

أتاها كتابى بعد يأس وترحة	فماتت سرورا بى فمت بها غما

ها هو يصنع من المفارقة صورة مؤثرة من صوره التى يمتلىء بها شعره حين يقابل بين السرور والغم وبين «بى وبها» فهى سرت به اى بكتابه وهو اغتم بها اى بنبأ وفاتها . وليست المفارقة فقط هى التى تكشف عن فنية المتنبى فهى حيلة تقليدية لدى الشعراء وانما يميزه الايجاز الشديد وهنا يسوى بين موتها الحقيقى وموته المجازى . ثم يحرم الشاعر على نفسه السرور هذا القاتل الذى اودى بحياة جدة الشاعر ويعتبره الشاعر سما محرما على نفسه وهو تحريم غريب لأن الفرح كالحزن يغزو النفس فلا تقدر على مقاومته ولكن هى مبالغات المتنبى .وأبيات القصيدة تتتابع وهى تمزج بين صورة الجدة التى جاءها كتاب حفيدها فقبلته وتعجبت من خطه وسطوره كأنها ترى نوعا غريبا من الغربان وهى التى يوجد بجناحها بياض . ولا شك أن عجبها من هذا الخط انما هو لشدة شوقها اليه تمزج هذه الصورة بلوعة نفسه. وها هو يصور تمكن حبه من قلبها فهو حب قوى ثابت لم تستطع الغربة والايام أن تدفع به الى السلوان أو النسيان وانما هو الموت وحده الذى قهر هذا الحب الغلاب فكأنه يرى أن الموت وحده وهو الذى يعد أقوى من حبها له وهو يعتبر هذا الحب والشوق والحنين

نوعا من السقم لا يغلبه الا ما هو اشد منه فالموت اقوى منه لانه هو الذى أذهبه .

ولم يسلها الا المنايا وانما اشد من السقم الذى أذهب السقما

وها هو الشاعر يعبر عن سبب غربته فى البلاد البعيدة وكأنه يندم لفراقه لها وبعده عنها ولكنه يتعزى بأن هذه الفرقة انما كانت لطلب حظه من الرزق ومن اجلها ايضا فهو يسعى فى الارض من اجلهـا ولكن هذا الحظ قد فاتها وفاته هو ايضا . ويظهر ندمه واضحا حين يقول : وقد رضيت بها قسما فكأنه يقول بأنهما كانا كافيين كل منهما للآخر بدون هذه الرحلة وهذه الغربة . وها هو يستسقى الغمام لقبرهـا بعد أن كان يستسقى اى يطلب الحروب والمعارك . وكأن الشاعر يرى أن الفراق والغربة انما هما شىء عظيم ثقيل الوطأة على النفس فكيف يرى الموت الآن لقد أصبح الفراق والغربة والترحال فى الارض شيئا هينا صغيرا بجانب هذا الموت الذى صارت اليه . وها هو يحاورها بمنطق الواقع وبمنطق واسلوب حياته الذى دأب عليـــه فهو لا ينى يأخذ بثأره من اعدائه ولكن كيف يأخذ بثأرها من الحمى .

هبينى أخذت الثأر فيك من العدى فكيف يأخذ الثأر فيك من الحمى

وبعد هذا البيت القائم على المنطق المثير المدهش هذا المنطق المقنـع المسكت اذا به يقفز الى بيت من اجمل ابيات القصـيدة بل انه من أجمل الابيات فى الشعر العربى قاطبة . فها هو الحزن قد بدأ يمسك بوجدان الشاعر ويملك عليه حواسه حتى لقد بدت الدنيا مغلقة المنافذ امامه . وكأنه يقف محاصرا لا يعرف كيف يتجه وقد سدت أمامه الطرق وها هو يختبر بشاعريته الرائعة تأثير صوره البالغة الايحاء والدلالة على الحزن والفقد . انه يقف حائرا محاصرا فهل الدنيا اغلقت دونه الطرق أم انه لا يتحرك من مكانه لأنه لا يرى شيئا انه يتوهم هنـا مجموعة من الاخيلة وهو يحسم هذا الموقف مبرهنا على صدق عاطفته وقوة احزانه وشعوره بالحصار بهذا البيت الرائع .

وما انسـدت الدنيا على لضيقها ولـكن طرفا لا اراك به اعمـى

هو واقف مكانه وهل يقف الا المحاصر او الاعمى نعم العمى هنا هو عدم رؤيتها أمامه وكأن الدنيا كلها لا تكفى عوضا عنهـا . وكأن القصيدة بهذا البيت قد وصلت الى ذروة حزنها وتفجعها ومرارتها . لان القصيدة تنعطف بعد بيتين عاديين هما :

فـوا اسـفا الا اكب مقبـلا لرأسك والصدر اللذى ملئا حزما

والا الاقـى روحـك الطيب الذى كأن ذكى المسك كان له جسـما

تنعطف القصيدة فى اتجاه جديد . اتجاه لا يناسب المقام . ان المتنبى يتجه الى الفخر الشديد بنفسه حتى فى قصيدة رثاء جدته فما هو تفسير ذلك . ربما كان تعليل ذلك ان الشاعر وهو محاط بعداوات شديدة يشعر كأن هذا الحادث وانما يصور لأعدائه أن الضعف قد حل به وان ركنه قد وهن فهو يعلن بثبات ورسوخ عن مفاخره وربما كانت معارك الشاعر الكثيرة الطاحنة تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا لتأمل شىء آخر فى الحياة . ها هو الشاعر يتصور أن اعداءه ان كانوا يشمتون به فى هذا اليوم فقد جاء رغما لانفهم ثم تستمر القصيدة فى اتجاه الفخر بالنفس فخرا يحمل الكثير من المبالغات والقسوة على الآخرين . وهو فخر يوحى بنفس لا تعرف الطمأنينة تتوجس دائما الشر من الاعداء . هو يلجأ الى نوع من التماسك المصطنع ليداري هذا الخوف الشديد الذى يسكن نفسه .

تغرب لا مستعظما غير نفسه	ولا قابلا الا لخالقه حكما
ولا سالكا الا فؤاد عجاجة	ولا واجدا الا لمكرمة طعما
يقولون لى ما انت فى كل بلدة	وما تبتغى ما ابتغى جل ان يسمى

ويستمر الشاعر فى مبالغاته حتى يقول :

وانى لمن قوم كان نفوسهم	بها أنف أن تسكن اللحم العظما

وكما بدأ المتنبى بهذا التدبر الذى يعرف مذاق الايام ينهى قصيدته بتأكيد فهمه لها وهو فهم يدعوه الى كراهيتها ويدعو هو نفسه الى المزيد من الكراهية لها .

كذا انت يا دنيا اذا شئت فاذهبى	ويا نفس زيدى فى كرائهها قدما
فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى	ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

فهل هى قصيدة فى رثاء الجدة ام قصيدة فى الفخر . ام نحن امام قصيدتين لهما غرضان مختلفان ؟ هذه هى شخصية المتنبى تؤكد وجودها وضيقها بمن حولها ومعرفتها المتشائمة بالحياة ولكن مهما يكن موقف الشاعر الفكرى الا ان شعره يظل محلقا فى الذرى التى اعتاد دائما التحليق عندها .

مرثيــــة

« أحسن بالواجد من وجده »

لأبى العلاء المعرى

أحسن بالواجد من وجده … صبر يعيد النار فى زنده
ومن أبى فى الرزء الا الأسى … كان بكاه منتهى جهده
فليذرف الجفن على جعفر … ان كان لم يفتح على نده
والشيء لا يكثر مداحه … الا اذا قيس الى ضده
لولا غضى نجد وقلامه … لم يثن بالطيب على رنده
ليس الذى يبكى على وصله … مثل الذى يبكى على صده
والطرف يرتاح الى غمضه … وليس يرتاح الى سهده
كان الأسى فرضا لوان الردى … قال لنا افدوه فلم نفده
هل هو الا طالع للهدى … سار من الترب الى سعده
فبات أدنى من يد بيننا … كأنه الكوكب فى بعده
يا دهر يا منجز ايعاده … ومخلف المأمول من وعده
اى جديد لك لم تبله … واى اقرانك لم ترده
تستأسر العقبان فى جوها … وتنزل الاعصم من فنده
ارى ذوى الفضل واضدادهم … يجمعهم سيلك فى مده
ان لم يكن رشد الفتى نافعا … فغيه أنفع من رشده
تجربة الدنيا وافعالها … حثت أخا الزهد على زهده
والقلب من اهوائه عابد … ما يعبد الكافر من بده
ان زمانى برزياه لى … صيرنى امرح فى قده
كأننا فى كفه ما له … ينفق ما يختار من نقده
لو عرف الانسان مقداره … لم يفخر المولى على عبده
امس الذى مر على قربه … يعجز أهل الارض عن رده
اضحى الذى اجل فى سنه … مثل الذى عوجل فى مهده
ولا يبالى الميت فى قبره … بذمة شيع ام حمده
والواحد المفرد فى حتفه … كالحاشد المكثر فى حشده
وحالة الباكى لآبائه … كحالة الباكى على ولده
ما رغبة الحى بأبنائه … عما جنى الموت على جده
ومجده افعاله لا الذى … من قبله كان ولا بعده
لولا سجاياه واخلاقه … لكان كالمعدوم فى وجده
تشتاق أيار نفوس الورى … وانما الشوق الى ورده
تدعو بطول العمر افواهنا … لمن تناهى القلب فى وده
يسر ان مد بقاء له … وكل ما يكره فى مده
أفضل مافى النفس يغتالها … فنستعيذ بالله من جنده

فآفة العاشق من طرفه — وآفة الصارم من حده
كم صائن عن قبله خده — سلطت الارض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده — وكان يشكو الثقل من عقده
ورب ظمآن الى مورد — والموت لو يعلم فى ورده
ومرسل الغارة مبثوثة — من أدهم اللون ومن ورده
يخوض بحرا نقعه ماؤه — يحمله السابح فى لبده
أشجع من قلب خطية — على طويل الباع ممتده
يرى وقوع الزرق فى درعه — مثل وقوع الزرق فى جلده
لا يصل الرمح الى طرفه — ولا الى المحكم من سرده
يلقى عليه الطعن القاءك الحسب على المسرع فى عقده
بلحظة منه فماد ونهى — يرد غرب الجيش عن قصده
امهله الدهر فأودى به — مبيضة يحدى بمسوده
فيا اخا المفقود عن خمسة — كالشهب ما سلاك عن فقده
جاءك هذا الحزن مستجديا — اجرك فى الصبر فلا تجده
سلم الى الله فكل الذى — ساءك او سرك من عنده
لا يعدم الاسمر فى غابه — حتفا ولا الابيض فى غمده
ان الذى الوحشة فى داره — تؤنسه الرحمة فى لحده
لا اوحشت دارك من شمسها — ولا خلا غابك من اسده

شاعر هذه المرثية التى نزود بنا طريق الحكمة والتأمل البصير فى شأن الموت والحياة هو ابو العلاء المعرى . رهين المحبسين كما اشتهر فى تاريخ الادب العربى ولد الشاعر ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخى عام ٣٦٣هـ بمعرة النعمان ومات بها عام ٤٤٩هـ . وبين الميلاد والموت رحلة حياة قلما شهد لها التاريخ الادبى نظيرا . فرغم آفة العمى التى لحقت به وهو فى الثالثة من عمره الا انه كان عبقرية فنية تتجاوز بعطائها نطاق عصره وتمتد ببصيرتها فى الزمان والمكان والكائنات فتبدع هذه الروائع الشعرية الخالدة . كان عصر الشاعر وهو القرن الرابع الهجرى مليئا بالاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة لتدهور كيان الامبراطورية الاسلامية وانقسامها الى دويلات تغلى بالاحقاد والفتن والمؤامرات .وكانمثل هذا العصر باعثا وبالحاح شديد على اعمال الفكر فى شئونه . وكانت المرارة هى حصاد من يضع فكره وعقله فى معتركه .

قام الشاعر باعداد نفسه اعدادا هائلا ليقوم بدور الشاعر الفيلسوف المفكر فكان اعجوبة فى علمه وذكائه وفهمه يقول عن نفسه « ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراقى ولا شامى وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب لم أرق منه قطرة فى طلب أدب ولا مال » .

رحل الى بغداد عاصمة الخلافة المتداعية وهو يحلم باعترافهـ
بشأنه الخطير . وقيلت آراء كثيرة فى أسباب رحلته الى بغداد و
فى السادسة والثلاثين من العمر ولكنه دفع عن نفسه كل ادعاء
ذهب الى بغداد طلبا للمال او الشكوى من ظلم لحق به ولكنه ذ
طلبا للعلم وحبا فى خزائن كتبها ولكن بغداد اساءت اليه فلم تد
ضيافته ولقى الاهانة من بعض العلماء والنحاة وتروى الدكتورة
الشاطىء فى كتابها عن أبى العلاء هذه الواقعة : يذكرون أن أبا الـ
كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى وجـ
يتتبع عيوبه فقال أبو العلاء لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قصيد
لك يا منازل فى القلوب منازل د

لك يا منازل فى القلوب منازل لكفاه فضلا فغضب السيد المرتضى وأمـ
فسحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه وقال لمن يحضرونه : اتدرون
شىء اراد الاعمى يذكر هذه القصيدة ؟ فان للمتنبى ما هو أجود منهـ
يذكره قالوا النقيب السيد أعرف فقال اراد قوله :

واذا أتتــك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بانى كامل

فاذا اضفنا الى هذه الاهانة اهانات أخرى سبقتها فهمنا
عودته مثقل النفس من بغداد عازفا عن الناس حزينا كئيبا معتزلا مؤ
جدران بيته على اتساع الدنيا كلها . كان نباتيا لا يأكل اللحم .
نفسه بالشدة وراضها رياضة عنيفة فى محاولة لقتل شهوات نفـ
واخراج الدنيا من قلبه ورغم انه يشكو حبها كما يقول « لااكتمـ
مولاى ما أنت به عليم ـــ ان أسفى على الدنيا طويل . أحب الدنيا
كأنها تحبنى والغريزة عن الرشد تذبنى . « احب الدنيا وآلتها ليـ
فى وقد يئست من بلوغها واليأس مريح فالام التشوق والضلال » و
أنه يشكو حبها فقد انتصر وقهرها فى نفسه واستطاع ان يغوص
أعماق بحارها ليستخرج لؤلؤ الحكمة التى تجلت فى شعره ونثره د
السواء . يتحدث الدكتور طه حسين عن شعره فيقول « ليس لدينـ
من شعر أبى العلاء الا ثلاثة دواوين : أولها سقط الزند والمشهور
يشتمل على شعره أيام الشباب وان كان ذلك موضع بحث فانا نـ
فيه قصائد نظمت فى بغداد وبعد رجوعه الى المعرة بل نجد قصيدة نظـ
سنة اربع عشرة واربعمائة وهى الطائية التى بعثها الى خازن دار الـ
ببغداد ويحسم طه حسين هذه القضية بقوله : فلا شك فى أن
العلاء انما لاحظ أن شعر الشباب فى سقط الزند أكثر من شــــ
الكهولة والشيخوخة فحكم عليه هذا الحكم ولعل الكتاب قد جمع بـ
رجوع أبى العلاء من بغداد ثم زيد عليه ماجد من الشعر . والثا
الدرعيات وهو ديوان صغير يشتمل على أشعار وصفت فيها الد
خاصة اما الديوان الثالث فهو اللزوميات وهى اكبر الدواوين وأجلهـ
خطرا نظمت كلها فى الطور الثالث فمثلت حياة عقله ووجدانه وخلقـــ

احسن تمثيل «ولأبي العلاء مؤلفات نثرية لعل اشهرها رسالة الغفران ويحظى أبو العلاء المعرى باهتمام شديد تجاوز النطاق الاقليمي العربي الى المجالات العالمية فقد اهتم به المستشرقون اهتماما كبيرا وذلك نظرا لما فى أدبه من نظرة فلسفية عميقة للكون والحيـاة . ولقد اتهـم ابو العلاء فى عقيدته ولكن المدافعين عنه وجدوا أدبه أقوى الحجج على ايمانه واذا كانت صعوبات حياته وفساد عصره قد قاده الى رأى قاس فى الناس والاشياء فان هذه الصعوبات نفسها كانت مدخل روحه الى رياض الحكمة والشعر بحيث عاد الينا من رحلة حياته القاسـية بهذا التراث الضخم من الشعر والنثر الذى يضاهى بفخر ارفع ما كتب فى ادب اى امـة على الارض هذا ابو العلاء المعرى . اما قصيدته فهى واحدة من اروع المراثى التى كتبت فى الشعر العربى فى كل عصوره. فى هذه القصـيدة القوية البناء والجزلة العبـارة نعثر على كنز غنى فياض بالحكمة واذا كانت المراثى تكتب للتفجع ونثر فضائل المتوفى فان لابى العلاء المعرى منهجا متميزا . فهو لا يغفل الاضاءة الاخلاقيـة للفقيد ولا يهمل تصوير لوعة الحزن عليه ولكنه يجمـع الى ذلك كله قدرة خارقة على النفاذ من الخاص الى العام. على تجاوز الحزن الاصغر الى الحزن الاكبر يملك ان يرى الكليات الشاملة فى الجزئيات العابرة وهذا دور الشاعر الحقيقى . الذى يرى فى التجربة الذاتيـة معبرا الى التجربة الجماعية . هذه القصيدة قالها أبو العلاء المعرى فى رثاء ابن جعفر بن على بن المهذب . واذا نظرنا اليها نظرة شاملة وجدناها فى تدبر أمر الحياه والموت تدبرا يشفى النفس من همها الثقيل ولهفتها وغيرتهـا والتفجع عليها . هى قصيدة فى السلو عن الدنيـا والعزاء والتطهر : تبدأ بدفع الحزن عن النفس لتقودنا الى الحزن الاكبر وكأنه يرى الدنيا مسرحا للأحزان ومن ثم لا تستحق كل هذا التفجع . وعلى المرء فيها الا يستسلم لمواجعة وأرزائه فان فعـل واستسلم فسيقوده ذلك الى الانطفاء بدلا من التوهج والنشاط نجد الشاعر يبدأ القصيدة موصيا نفسه التى يبدو أنه يدير معها حوارا خفيا « منلوج » يوصى الشاعر بالصبر حتى تمتلىء النفس بالقوة لاحتمال الحياة وما تأتى به الايام . فهو يرى ان الاسى يستنفد الطاقة حتى يكون جهد الحزن ضائعا كله فى البكاء وحتى لا يكون قادرا على غيره وكان الشاعر يرى فى البكاء شيئا تافها سهلا اذا واجه به المرء الرزايا انما يطلب الشاعر للمرء جلدا وقوة وصـبرا يستعين بها على بلاء الايام . ولكن الشاعر يضعف ويأمر مرة اخرى بالبكاء لان جعفر لا نظير له . ويميل الى بيان فضل المرثى شـأن التقليدين من الشعراء الذين يلحون على اظهار فضائل الفقيد وتوشك الابيـات ان تهبط الى المألوف من المعانى لانها جنحت الى المألوف من الاغراض . فهو يشير الى تفوق جعفر على اقرانه ويقيم الاتيسة الفنية على مقارناته التى قد تتوسل بالمنطق والحجة العقلية والتلاعب الذى يظهر تمكنه الشديد وقدرته فى سبك جمله فى يسر وبراعة .

ليس الذى يبكى على وصاله   مثل الذى يبكى على صده

ويستمر فى الاستدلال على المعنى فى البيت الذى يليه موضحا أن العين ترتاح لما يريحها وتتعب مما يتعبها . فليس حب جعفـــر بعجيب وهو الذى يريح النفوس وتتمنى هذه النفوس قـــربة منهــــا . ويبدو الشاعر وكأنه يعتذر عن طلب السلوان والتوصية به فهو يشــير الى أن هذا الحزن كان سيغدو فرضا لازما لو انه كان فداء نافعا للفقيــد وبخلنا به عليه . ولكنه نجم صاعد الى مكانه الحقيقى وها هو الذى كان قريبا منا صار بعيدا كأنه الكوكب فى بعده الشاسع . ان الشاعر لا يقف عند صفات هذا الفقيد العزيز لأنها كما يبدو مستقرة فى نفس من يعرفه وهى واضحة ظاهرة لا تحتاج الى تذكير بها ولا يحتاج الشاعر فى هذا المقام العصيب الا لمغالبــــة الحزن وفهم ظاهرة الموت فى ضوء ظاهرة الحياة وها هو يلتمس المدخل الى جوهر القضية . انه الدهر . هذا العدو الغامض للحياة والاحياء وهو يخاطبه معاتبا لاصقا به صفة العداء فهو ينجز الوعيد ويخلف الوعد . وها هو يجرد منه كائنا عاتيــا قاسيا لا يغلبه أحد ولاند له يستعصى على الموت . فهو يأسر العقبــان تلك الطيور القوية الماهرة التى تجيد التحليق فى الآفاق العالية ومع ذلك فالدهر يأسرها من آفاقها كما يأتى بالوعل الشارد من جبله العــالى . الشاعر يصف الدهر بالعدوانية فهو سريع الاذى ومخلف للظنون التى تأمل الخيرمنه وهو قوى باطش لا يفلت منه محلق فى الفضــاء ولا هارب فى أعلى الجبال وهو كذلك لا يميز بين الخبيث والطيب فهو يسلكهم فى خيط واحد ليداهمهم سيله الطامى الذى يعلو مده فيطوى الاخيار والاشرار هل الدهر هنا يعنى الزمان كما نفهم من مدلول الكلمة اللغوى ام أن الدهر قوة ذات ارادة . ان ملامح هذا الدهر الذى يجرد منه الشاعر كائناغامضا يلتبس مع الموت فى صورة تكاد تكون متشابهة والشاعر بعد ان وجـــه الاتهام قاسيا لهذا الدهر يولى وجهه شطر الحياة والاحياء ليقدم لنــــا جواهر الحكمة الشعرية التى يبدو أن الحديث الأليم قد فجرها فى نفسه . ها هو الشاعر يتجه الى نوع من النصح بالاستقامة وكأنه ينظر فى هذه اللحظة الى ختام الحياة فيرى أن الرشد أجدر بهـــا من الغى ما دامت تنتهى بالموت والشاعر لا يفعل ذلك بطريقة مباشرة فجة فيقع فى الوعظ الذى يقدر عليه صغار الشعراء وانما يرتفع ليرسم صورة اخلاقية ذات دلالة ومغزى فى مثل هذا المقام . انه يحاول أن يحث العابث اللاهى على الاستقامة واعمال عقله فى مايرى فى هذه الدنيا وهو موشك ان يعاقبه على هذا الغى ثم يلقى بهذه الحكمة التى اعتصرها من صـــميم خبراته بالحياة ومن غمار احداثها .

تجربة الدنــــيا وافعالهــــا   حثث أخـــا الزهد على زهـــده

ثم هو بعد ذلك ينتقل الى تصوير الاهواء التى تستولى على النفس فتجعل القلب عابدا لها وكأنها صنم من الاصنام . يلح الشاعر فى تصويره للزمان على استحضار صورة الموت :

ان زمانـــى بـــرزاياه لـــى صـــيرنى أمـــرح فى قـــده
كأننـــا فى كفـــه مـــاله ينفـق ما يختـــار من نقـــده

يجردنا ابو العـــلاء فى هذا البيت من كل ارادة أمام الزمان الذى أضافه الى نفسه ثم لجـــأ الى التعميم وذلك لانه حين تحـــدث عن الرزيا كان يعرف ان حياته ليست مثل حيـــاة الاخرين فقد يكون نصيبه منها اعظم واكبر اما حين يتحدث عن غلبة الموت فهنا يستوى الجميـــع ولا ارادة لحى . ثم يخلص من هذه التأملات الحزينة الى بيت يوشك ان يرتفع بالقصيدة كلها لو لم يكن فيها بيت اخر فى مستواه .

لو عرف الانســـان مقـــداره لم يفخـــر المولى على عبـده

هذا جوهر المساواة الانسانية فنحن امام الموت مجردين من الارداة سجناء فى أجسادنا التى يستوى فيها العبد وسيده ويلجأ ابو العلاء بعد ذلك للحديث عن عجز الانسان هذا العجز الذى يجعل منه الشاعر وسيلة لاقناعنا بالحقائق القاسية فى هذا الوجود فمن ذا الذى لا يصمت مفحما امام هذا التحدى :

أمس الذى مـــر على قربـــه يعجـــز اهـــل الارض عن رده

ثم يستمر ابو العلا فى تتبع صور المساواة أمام الموت هذا القاهر الغلاب فالشيخ الذى مكث طويلا فى الارض حتى بلغ ارذل العمر سواء هو والطفـــل الذى عوجل وهو فى المهـــد . والميت الذى عبر الى قبره لا يبـــالى بالذم ولا بالمدح والواحد كالحشد الكثير هذه صـــور متعددة للمساواة مســـاواة الواحد بالجميع ومســـاواة من يبـــكى على آبائه بمن يبكى على ابنائه فجوهر الفقد واحد ويذكرنا هذا البيت بنظيره فى التراث العربى .

وقالت أتبكى كل قبـــر رايتـــه لقبر ثـــوى بين اللـــوى فالدكادك
فقلت لها ان الشجا يبعث الشجا دعينى فهـــذا كـــله قبر مـــالك

ولا يحاول الشاعر أن يخرجنا من الدنيا دون أن يشـــير الى هذا الجانب المبضىء الذى يجعل الموت اضاءة للحياة والنهاية شحذا للبداية فهو يعود مرة اخرى الى الحديث عن قيمة الاعمال الطيبة فى الحيـــاة حيث يحث الانسان على اكتساب الافعال الخيرة هذه الافعال التى تدفع اليها السجايا الحسنة والاخلاق الكريمة ولكن الشاعر يقطع استرساله ليتحدث مرة اخرى عن طبيعة الحياة . وكيف يسعد الانسان حين يدعى له بطول العمر وليس فى الطول غير الالام التى يتجرعها . وكيف ينجو الانسان من مصيره وافضل ما فيه يغتاله وداؤه دواؤه .

فآفـــة العاشـــق من طرفـــه وآفـــة الصـــارم من حـــده

والشاعر يذكرنا بعمر الخيام فى هذه الابيات .

كم صـــائن عن قبله خـــده	ســـلطت الارض على خـــده
وحـــامل ثقــل الثرى جيـــده	وكان يشـــكو الثقل من عقـــده
ورب ظمـــآن الى مـــورد	والموت لـــو يعلـــم فى ورده

ويتحدث أبو العلاء عن الفرسان الذين يتسمون بالمهارة فى الحرب ولكن هذه المهارة لا تجديهم شيئا . ويختتم قصيدته بمثل مابدأ بها انه يدرك ان الحزن مجرد ضياع للجهد والوقت والعمر فنصـــح بالصبر والتسليم لله .

ســـلم الى الله فـــكل الذى ســـاءك او سرك من عنـــده

ولا ينسى بالطبع أن يشير الى الرحمة التى تؤنس الفقيد داعيا الله بأن لا تقفر داره . هذه القصيدة التى تستولى الحكمة على معظـــم أبياتها تعطينا صورة لهذا التفكير القاتم الذى كان يظلل قلب وعقل — أبى العلاء ولكن هذا التفكير ليس متجهـــا هذا الاتجـــاه العدمى رغم تسليمه بالعجز فى مواجهة الموت بل هو ينادى بالحياة الصحيحة السليمة الغامرة بالقيم والاعتماد على النفس والاهتداء بالعقل . ان صورة الموت فى هذه القصيدة غالبة دون شك ولكنها مدخل للحياة ورفض للحزن الذى يقعد النفس عن طلب المعالى . واذا كان الشاعر يحاصرنا بصورة العجز فلكى يوطن النفس على احتمال المكاره وعلى بعث القيم النبيلة فى الحياة مثل المساواة والحرص على الفضيلة وفيها كذلك دفع للاتهام الذى كان يوجه الى ابى العلاء فى امر عقيدته . وكما أن هذه القصيدة يمكن أن توصف بأنها عن الموت فهى كذلك قصيدة باهرة عن الحياة .

لقد انصبتنى ام قيس

من شعر كعب بن سعد الغنوى

لقد انصبتنى ام قيس تلومنى … وما لوم مثلى باطلا بجميل

تقول الا يا استبق نفسك لا تكن … تساق لغبراء المقام دحول

كملقى عظام او كمهلك سالم … ولست لميت هالك بوصيل

اراك امرا اترمى بنفسك عامدا … مرامى تغتال الرجال بغول

ومن لا يزل يزجى بغيب ايابه … يجوب ويغشى هول كل سبيل

على قلت يوشك ردى أن يصيبه … الى غير ادنى موضع لمقيل

الم تعلمى ان لا يراخى منيتى … قعودى ولا يدنى الوفاة رحيلى

مع القدر الموقوف حتى يصيبنى … حمامى لو أن النفس غير عجول

فانك والموت الذى تر هبينه … على وما عذالة بغفول

كذاعى هديل لايجاب اذا دعا … ولا هو يسلو عن دعاء هديل

وذى ندب دامى الأظل قسمته … محافظة بينى وبين زميلى

وزاد رفعت الكف عنه عفافة … لأوثر فى زادى على اكيلى

وشخص درات النمس عنه براحتى … لا نظر قبل الليل أين نزولى

ومنشق اعطاف القميص دعوته … وقد سد جوز الليل كل سبيل

فقلت له : قد طال نومك فارتحل … وما ذاق طعم النوم غير قليل

سحيرا وأعجاز النجوم كأنها … فساطيط ركب بالفلاه نزول

ومن لا ينل حتى يسد خلاله … يجد شهوات النفس غير قليل

وعوراء قد قيلت فلم استمع لها … وما الكلمة العوراء لى بقبول

وما انا للشىء الذى ليس نافعى … ويغضب منى صاحبى بقؤول

وأعرض عن مولاى لوشئت سبنى … وما كل يوم حلمه بأصيل

ولن يلبث الجهال ان يتهضموا … اخا الحلم مالم يستعن بجهول

واذكر أيام العشيرة بعد ما … أميل غيظ الصدر كل ميل

ولست بمبد للرجال سريرتى … وما أنا عن اسرارهم بسؤول

وقوم يجرون الثياب كأنهم … نشاوى وقد نبهتهم لرحيل

وقد نفر الليل النهار والبست … سماوة جون مجنح لأصيل

شاعر هذه القصيدة ليس واحدا من اعلام الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان واحتفل بهم النقاد وروت لهم كتب الادب الروايات عن حياتهم وشعرهم وانما هو شاعر فرض اسمه على الكتب المتخصصة فى تمحيص الشعر العربى مثل بلوغ الارب والسمط والاغانى والخزانة .
انه كعب بن سعد الغنوى أحد بنى سالم بن عبيد بن سعد بن كعب ينتهى نسبه الى قيس بن عيلان وبعض الكتب ترفع نسبه الى الجد الاخير وبعضها يوجز فى ايراد اسماء الاجداد وكعب هذا اغلب عليه لقب كعب الامثال « لكثرة ما فى شعره من الامثال وفى الامالى انه شاعرا اسلامى عاش

وأبدع شعره فى العصر الاموى وهذا ما يؤكده الطابع العام لهذه القصيده. التى تكاد تنتمى بقيمها الفنية والموضوعية الى العصر الجاهلى . ولما كان العصر الاموى انما هو رجعة فنية كبيرة الى الصورة الفنية التى كان عليها الشعر الجاهلى فان هذه القصيدة لا تصبح غريبة فى عصرها الذى قيلت فيه وقد وردت هذه القصيدة فى مختارات ابن سعيد عبد الملك » ابن قريب بن عبد الملك المعروف بالاصمعى وهى المختارات التى تحمل اسم الاصمعيات نسبة الى جامعها والنظرة الشاملة بعد القراءة المتعمقة» للقصيدة تلحظ عناصر الاتجاهات الفكرية والفنية والفلسفية الاساسية التى ازدهرت فى الشعر الجاهلى وحاول الشعر الاموى الارتداد اليها باسلوب يستوعب خبرة التجربة الاسلامية الكبيرة التى غيرت النطاق الفكرى الذى كان سائدا كما خلقت معايير جديدة فى مجال الاخلاق والعلاقات الانسانية وبناء المجتمع ذاته . فالاطار العام لقصيدة كعب بن سعد الغنوى يمت للشعر الجاهلى بنسب اصيل يظهر جليا فى هذه الانفاس التى تعيد الينا الاتجاه الى الحكمة الذى برز فيه واقام اسسه الاولى زهير بن ابى سلمى : فالحكمة كمفهوم انسانى يمتص خبرة عصر باكمله تنتشر فى هذه القصيدة الرائعة كما تعطى القصيدة كذلك ايحاء قويا بصلنها المباشرة بهذا العالم الذى يحفل بالمغامرة والمخاطرة عالم الصعاليك الفسيح الذى يحفه الغبار وتكمن فيه الاخطار . عالم يصبح فيه التخلى عن الاحساس بالأمن هو أعظم الضمانات للأمن .

يذكرنا بمخاطرة عروة بن الورد حين يقول :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا	من المال يطرح نفسه كل مطرح

ولكن المخاطرة هنا فى هذه القصيدة ربما كانت من نوع أكثر ترفا من مخاطرة الصعاليك الذين دفعهم نبذ المجتمع لهم الى ركوب الاخطار واصطناع الاسفار والغزوات . انها مخاطرة الهدف منها الحفاظ على كبرياء الشاعر مخاطرة لاعلاء شأن الذات وليس لدفعها درجات فى سلم الحياة الاجتماعية . وتبرز فى القصيدة هذه القدرية الحتمية التى كان شعر طرفه بن العبد رائدا فى تصويرها حين يقول :

الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى	وان اشهد اللذات هل انت مخلدى
أرى الموت أعداد النفوس ولا ارى	بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد

هذه الحتمية التى جعلت من الحياة اختيار قاسيا بين اعدام الذات فى اخضاعها التام للعرف والمواضعات والحتمية وبين اغتنام الحياة فوق لهب التمرد وتحت سياط الاحتجاج الاجتماعى واستنكاره وليس ثمة شك فى ان القصيدة « لقد انصبتى ام قيس » تنفرد بتصوير تجربة اخرى بالغة التفرد والذاتية وهى لا تلتقى مع تجارب الصعاليك أو زهير بن ابن سلمى او طرفة بن العبد الا لتفترق وهنا عظمة اى شاعر اصيل . ان الشاعر الحقيقى هو حفيد أسلافه فهو يذكرك باجداده الشعراء فى الوقت الذى يعتز بوجهه هو وموهبته الذاتية التى تميزه عنهم . وهكذا نرى صورة

جلية لنمط الصياغة الجاهلية وعصر بنى امية يذكرنا بزهير وطرفة وغيرهم ولكن الذى يبقى هو صدق انفاس بن سـعد الغنوى فى هذه القصـيدة الحارة الصـادقة التى تضرب بجذورهـا الفنية والفكرية والاخلاقية فى تراث القصيدة العربيه . وقد اختار الشاعر للقصـيدة بحـر الطويل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن ليعبر من خلاله عن هذه الموجات المشحونة بالتوتر والتأمل والحركة . انه بحر واسـع الاطراف هـادىء كالصحراء متموج بطىء الايقاع يعطى للشاعر فرصة حامية للتفكير والتأمل . وهو بحر شاع استعماله فى العصر الجاهلى . فهو فخم جليل ولكنه لا يترفع عن الحركة والتدافع اذا فاضت بالشاعر هواجسه ، وتبدا القصيده بظهور « أم قيس » لائمة عاتبة محذرة للشـاعر ومنذرة بالأذى الذى يمكن أن يلحق الشاعر من جراء تمسكه بفضائله كفارس شجاع فمن هى ام قيس هذه ؟ انها امراة كثيرة الظهور فى القصائد الجاهليـة والاموية ولكن باسماء مختلفة وهى قد تكون زوجة الشاعر المحبة له الخائفة عليه وقد تكون جزاء من هذا التقليد الفنى الذى تفتتح به القصائد . فكما اننا نعثر دائما فى الشعر الجاهلى وغيره على هذا الخليل الذى يحرص الشاعر على اصطحابه فى كل رحلاته فاننا نجد كذلك امراة مختلفة الاسـماء والاوضاع والمسافة من الشاعر ولكنها فى معظم الاحيان امرأة عاتبـة مشفقة على الشاعر مما يجلبه على نفسه ، انها مرة تكون أميمة التى يخاطبها ابو ذئيب الهذلى حين يقول :

قالت أميمـة مالجسمك شـاحبا منذ ابتذلت ومثـل مالك ينفـع

وقد تكون زوجة مشفقة كزوجة عروة بن الورد التى تحـذره من المخاطرة بنفسه طلبا للغنى فيرد عليها :

دعينـى للغنـى اسـعى فانى رأيت النـاس شرهم الفقـير

وقد نجدها من الجانب المناوىء كما فى قصيدة السمؤال بن عادياء حين يقول :

تعيرنـى انا قليـل عـديدنا فقلـت لهـا ان الكرام قليـل

فأم قيس اذن فى قصيدة كعب بن سعد الغنوى قد تكون زوجة او أمـا أو صديقه أو اختراعا فنيا يجرى به على سنة القصيدة العربية التقليدية وقد تكون تجريدا من نفسه لهذه الشخصية الخيالية اراد بها توجيه السؤال الى نفسه واللوم لها على استهانته بالمخاطر التى يعرض نفسه لهـا . ويبدو ان أم قيس هى امرأة حقيقية وهذا واضح من قوله «لقد انصبتنى» فالافتتاح بلقد يفيد التحقيق وانصبته اتعبته لانها اكثرت من لومه وعتابه وتحذيره ويبدو أنها استخدمت كل ما تستخدمه الانثى المحبة من وسائل الضغط لتمنعه من مواصلة مغامراته . وكان من الممكن أن يبدا الشاعر قصيدته بلومها مباشرة من خلال ندائها له ان يرحم نفسه أو يجنبهـا

المخاطر ولكنه آثر أن يفتتح القصيدة بالاعلان عن تعبه وضيقه من هذا اللوم الشديد على نفسه . وهو يعتبر هذا اللوم مجافيا للصواب والحق. لا لانه وديع يؤثر السلامة فيكون اللوم فى غير موضعه بل لان لوم مثله يعد باطلا فمثله لا يلام لأنه لا يرتكب جرما اذا كانت مخاطراته من اجل اكتساب الشرف والذود عن الاهل والعرض . انه يستنكر هذا اللوم لانه لا يليق بمثله فهذا اللوم ليس جميـلا وقد آثران يترفق بهذه المرأة التى يعرف جيدا ان لومها يأتى من اشفاقها عليه ومحبتها فانتقى وصفا مخففا لهذا اللوم الذى اعلن هو انه قد أتعبه فقال بأن هذا اللوم غير جميل وكان يمكن ان يستخدم لفظا اكثر غلظة لولا ان العلاقة التى تربطـه باللائمة علاقة حميمة وهدفها منه هو المحافظة عليه هو اذن قد اعلن فى هذا البيت تقريبا عن تقرير موقف ام قيس منه واحساسه وتقديره لهذه الموقف ووقعه عليه ثم اكد موقفه من هذا اللوم وحكمه عليه . فكانه فى الواقع قد لخص فى بيت واحد القصيدة كلها : وقوع اللوم — ورده عليه مع التركيز على التأثير وابراز شخصيته فهو بيت جامع او هوبيتالقصيدة ومعجزته أنه فى كلمات قليلة قد قال كل شىء تقريبا بعد هذا البيت الذى يبدو ان الشاعر قد اراد به التنفيس عن نفسه ندخل الى صميم العتاب الذى وجهته ام قيس الى الشاعر . وهو يبدأ بهذا النداء :

تقول ألا يا استبق نفسك لا تكن   تساق لغبراء المقام دحول

وحذف المنادى فى هذا البيت يؤكد امتلاء نفس وقلب هذه المرأة بهذا الشاعر المغامر فهى غير محتاجة الى ان تشير اليه او تعلن اسمه فهى تحس به ملء كيانها وكأنها تتعجل هذا الراحل المخاطر تريد ان تمنعه مما هو ذاهب اليه فكأن الحذف هنا لاختصار الزمن والذى تريده هو انتسرع بالنصح والعتاب لعله ان ينزجر فيقلع ما يهمها الان هو الهدف وعليها ان تصل اليه فى اسرع زمن ممكن وقولها تساق لغبراء المقام دحول : كناية عن القبر . وهى تتعمد هذا التصوير القبيح للقبر حيث شـبهته بالبئر المغيره التى تآكلت جوانبها وصارت لها فجوات كالكهف وهو مشـهد موحش مخيف تريد من وراء تصويرها هذا أن تردع شاعرها وقولهـا « تسـاق » يكشف عن ايمانها بحتميـة الموت وان كان هذا التعبير : لا تكن تساق مركب من الارادة ومن الاجبار فهى تنهاه عن السـير الى حتمية مصيره . هى تريد فى الواقع ان توضح ان الموت حتمية يساق له المرء سوقا وهذه طبيعـة الموت الغلابة ولكنها فى نفس الوقت تؤكد أن شاعرها يلعب دورا لا اراديا فى السير الى حتفه ومن هنا فهى تنهـاه وتزجره بعد أن تجسد أمامه صورة القبر تجسيدا مخيفا مفزعا تنتقل الى تصويره هو بعد الموت كما مهملا لا قيمـة له . بعد ذلك تأخذهـا عليه الشفقة فتدعو له بالنجاة من هذا المصير القاسى . ثم تستمر فى توجيه الخطاب والعتاب فهو يرمى بنفسه عامدا الى حيث الاقدار القاسية التى تغتال الرجال . وهى تعترف ان حياة المرء مشرفة دائما على الهـلاك يوشك الموت ان يصيب الانسان فيبعث به الى مكان بعيد ويستخدم كلمة مقيل للعالم الاخر كأنه مكان الراحة يصـل اليه الانسـان بعد الموت

وبعد هذا العتاب المشفق الذى يستخدم الحنوتارة والتخويف تارة تدخل القصيدة الى افق جديد وهنا تتبدى لنا شمس الحقيقة الساطعة وسط ظلام الحيرة والشكوك المريرة . يصدر الشاعر حكمه الصارم بعد ان اختبر الحياة والموت . فيجيء هذا الحكم مليئا حتى الحافة بالمرارة التى تشرف بالمرء على يأس من كل شيء . ان القدر الذى احكم خيوط المصير لا يجدى معه القعود او الرحيل : الم تعلمى ان لايراخى منيتى . قعودى ولا يدنى الوفاة رحيلى ويالها من دقة فى التعبير فهو هنا يقيم نوعا من المقابلة بين يراخى ويدنى وبين القعود والرحيل . فهو هنا يستخدم كلمة التراخى للتعبير عن الموت ان المساومة اذن ليست الا على قليل من الزمن وحتى هذا القليل ميئوس تماما من الحصول عليه عن طريق القعود او الرحيل . ولا شك ان نفور الشاعر من التخاذل وايثار السلامة قد وجد التعبير المثالى عنه فى كلمة القعود هذه الكلمة التى توحى بالتكاسل وضعف الهمة والسقوط . ثم يأتى هذا البيت الحاسم فى تقدير موقف هذا الفارس الشجاع الذى يخاطر وهو يعلم ان القدر ممسك بالخيوط كلها تماما كما يقول طرفة بن العبد .

لعمرك ان الموت ما اخطأ   لكطول المرخى وثنياه باليد

الشاعر يعلن وقوفه مع القدر . ياله من تضامن يكشف عن جسارة الفارس كما يكشف فى نفس الوقت عن هذا التقبل الذى تخلقه البصيرة فى وجدان هؤلاء الذين وهبوا الحكمة وشجاعة النظر الثابت فى قلب الاشياء . وكأنه شديد الحماس لهذا القدر الموقوف عليه : اى قدره الخاص . قدره وحده انه يتضامن معه ويتبدى هذا جليا فى البدء بالاحرف مع وكأنه حذف كلمة « أنا » لاهتمامه بالمعية اكثر من اهتمامه بتأكيد ذاته هو يعلن تضامنه مع قدره الخاص فى الحياة والموت حتى يصيبه الحمام ثم يوضح لها موقفها منه وهو موقف يرى أنه لا جدوى من ورائه لانه لن يغير من طباعه ولا من قدره ولا من ارادته . هو يقول لها انها متضامنة مع الموت ضده وان موقفها هذا عبث كهؤلاء الذين يدعون هديل — والهديل فرخ الحمام تزعم الاعراب انه فرخ كان على عهد نوح فمات ضيعة وعطشا فيقولون انه ليس من حمامة الا وهى تبكى عليه . ومن هنا سمى بكاء الحمام هديلا . وهذا تفسير اسطورى ولكن الشاعر استعار هذا الموقف الخيالى للتعبير عن استحالة اثنائه عن عزمه أو رجوعه عن فروسيته .

كداعى هديل لايجاب اذا دعا   ولا هو يسلو عن دعاء هديل

وبعد هذا البيت تنتقل القصيدة الى مرحلة أخرى هى مرحلة اقرب الى الفخر منها الى الدفاع عن النفس فهو يعطى صورة لصفاته النادرة واخلاقه الرفيعة هذه الصفات التى تأتى الشجاعة فى مقدمتها ثم الحكمة وقبول الواقع ببصيرة نافذة . يتحدث الشاعر عن وفائه ومودته وعفته وكرمه .

وذى ندب دامى الا ظل تسمته — محافظة بينى وبين زميلى
وزاد رفعت الكف عنه عفافة — لاوثر فى زادى على اكيلى
وشخص درات الشمس عنه براحتى — لانظر قبل الليل اين نزولى

وكل هذه الصور انما ليؤكد بها الشاعر كرمه وايثاره لغيره وحرصه على أصدقائه فهو رجل يحمى الغريب ويأوى الطريد الى جانب هذه الصور البليغة . فهو يصور النجوم بقطيع بقر الوحش وهى تهبط من التلال .

ومنشق أعطاف القميص دعوته — وقد سد جوز الليل كل سبيل
فقلت له قد طال نومك فارتحل — وما ذاق طعم النوم غير قليل
سحيرا وأعجاز النجوم كأنها — صوارا تدلى من سواء اميل

وبعد أن يعرض لنا الشاعر صورا من كرمه يبرهن على ان الكرم لا يكون من فضل المال ولا مما يبقى بعد الاكتفاء فالكريم يجود بما عنده ولو كان فى حاجة اليه . وهو هنا ينبه الى خدعة تلجأ اليها نفس البخيل حين يقول لنفسه لابد من سد حاجتى أولا قبل أن اعطى الآخرين فالذى ينتظر شبع النفس حتى يجود بماله سيجد أن حاجته لا تنقضى .

ومن لاينل حتى يسد خلاله — يجد شهوات النفس غير قليل

ثم يتابع الشاعر بعد ذلك عرض صفاته العالية فهو لا يقبل القبيح من الكلام بل انه يؤكد ترفعه حتى عن سماع هذه الكلمات القبيحة فهو لا يقبل مثل هذا القبح . وهذه عفة وترفع وكبرياء بل هو نموذج للكياسة والحذق والحرص على مودة الاخرين فهو لا يثرثر بما يغضب صاحبه . وهو يترفع عن الجهال فلا يترك نفسه يتردى الى جهالتهم فاذا صور علاقته بأهله وجدناه حريصا غاية الحرص على هذه العشيرة التى تملك عليه جوانب نفسه فهو لا ينسى أهله ابدا حتى لو اساؤا اليه بل يعمد الى التأمل والصبر والمفاضلة بين الاحتمالات .

واذكر ايام العشيرة بعد ما — اميل غيظ الصدر كل مميل

وهو رجل حكيم لا يسرع بقطع الاسباب بينه وبين أهله او بينه وبين غيره من الناس رغم انه ليس غرا ساذجا فهو يعرف ايضا ان الناس ليسوا ملائكة وأن الحذر منهم شيمة العاقل اللبيب فهو لا يترك اسراره تسيل من شفتيه لأنه يعرف قيمة هذه الاسرار ولا يظهر أعماقه أمام الاخرين خوفا من أن ينهشوا هذه الاعماق الدفينة .

ولست بمبد للرجال سريرتى — وما أنا عن اسرارهم بسؤول

انه يحترم حقوق الاخرين كذلك فى الحفاظ على اسرارهم وسرائرهم . وهذه هى الفروسية والنبل . لا يبحث لاحد عن نقطة ضعف . انه يحمى

نفسه بشرف وكرامة وتدفعه فروسيته ونبله الى الاعتراف بنفس الحق للرجال الاخرين . وهذه صوره من صور الحرية والمســاواة ثم يختتم الشاعر قصيدته بالحديث عن مخاطرانه بنفسه واســفاره وما اجمــل تعبيره .

وقد نفر الليــل النهار والبست ســماوة جون مجنح لاصــيل

هو يريد ان يقول ان الليل يغالب النهار ويدفعه الى الخروج من الكون فها هى الدنيا تلبس سماء اقرب الى لون المساء عند الاصيل . هذه القصيده الرائعة لكعب بن سعد الغنوى تعد دستورا راقيــا لطراز من الرجال جديرين بخلقهم وصفاتهم ان يصنعوا عالما فاضلا . فالشاعر وهو يتحدث عن نفسه لا يسقط فى الفخر الذى ينفر النفس منه وانما هو رجل يتحدث فى لهجة أقرب الى تطهير الذات منها الى الاستعلاء فهو لا يذكر الا الصفات التي ينبغى أن تكون دستور الانسان المثالى لقد جمع الى الشجاعة الحكمة والى العفة الكرم والى احترام النفس احترام الاخرين والى الولاء للعشيرة الخبرة بالرجال ودخائلهم ولو انسان عن نفســه هذه الصفات لعددناه متفاخرا مباهيا مبالغا . ولكنك تخرج من أنقصيدة معجبا بهذه الصفات فضلا عن تجسدها فى الشاعر او عدم تجسدها وغير عابىء بصدقه او مبالغاته فالحقيقة ان الصياغة الرفيعة التى صيغت بها القصيدة تؤكد صدقها من ناحية وتؤكد بلاغتها النادرة من ناحية اخرى فهى موجزة شديدة التركيز . ولكنها تضم كنزا ثمينــا من القيم الاخلاقيــة والانسانية والاجتماعية الرفيعة . واذا كان الشاعر قد بدأ بالشجاعة والتسليم للقدر فقد اعطانا المفاتيح الاساسية للشخصية السليمة . قوة القلب وقوة العقل . هذه قصيدة شــاعر بدوى اسمه كعب بن ســعد الغنوى ولكنها تقف بما تحفظه فى ابياتها من كنوز مع روائع الشعر فى كل العصور .

شاعر يرثى نفسه

مالك بن الريب التميمى

الا ليت شعرى هل أبيتن ليـلة … بجنب الفضى ازجى القلاص النواجيا

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه … وليت الغضى ماشى الركاب لياليا

لقد كان فى أهل الغضى لودنا الغضى … مزار ولكن الغضى ليس دانيـا

الم ترنى بعت الضلالة بالهدى … وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا

واصبحت فى ارض الاعادى بعيد ما … ارانى عن أرض الاعادى قاصيا

دعانى الهوى من اهل أود وصحبى … بذى الطبسن فالتفت ورائيا

اجبت الهوى لما دعانى بزفرة … تقنعت منها ، أن الام ، ردائيا

اقول وقد حالت قرى الكرد دوننا … جزى الله عمرا خير ماكان جازيا

ان الله يرجعنى من الغزو لا أرى … وان قل مالى طالبا ما ورائيا

تقول ابنتى لما رات طول رحلتى … سفارك هذا تاركى لا أبا ليا

لعمرى ،لئن غالت خراسان هامتى … لقد كنت عن بابى خراسان نائيا

فان أنج من بابى خراسان لا اعد … اليها وان منيتمونى الامانيا

فلله درى ، يوم اترك طائعـا … بنـى بأعلى الرقمتين وماليا

ودر الظباء السانحات عشيـة … يخبرن — انى هالك — من ورائيا

ودر كبيرى اللذين كلاهما … على شفيق ناصح لو نهانيا

ودر الرجال الشاهدين تفتكى … بأمرى الا يقصروا من وثاقيا

ودر الهوى من حيث يدعو صحابه … ودر لجاجاتى ودر انتهائيا

تذكرت من يبكى على فلم اجد … سوى السيف والرمح الردينى باكيا

وأشقر محبوك يجر لجامه … الى الماء لم يترك له الماء ساقيا

ولكن بأكناف السمينة نسوة … عزيز عليهن العشية مابيا

صريع على ايدى الرجال بقفرة … يسوون لحدى حيث حم قضائيا

ولما تراءت عند مرو منيتى … وخل بها جسمى وحانت وفاتيا

أقولى لاصحابى ارفعونى فانه … يقر بعينى أن سهيل بداليا

فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا … برابية .. انى مقيم لياليا

أقيما على اليوم او بعض ليلة … ولا تعجلانى قد تبين شانيا

وقوما اذا ما استل روحى فهيئا … لى السدر والاكفان عند فنائيا

وخطا بأطراف الاسنة مضجعى … وردا على عينى فضل ردائيا

ولا تحسد انى بارك الله فيكما … من الارض ذات العرض ان توسعاليا

خذانى فجرانى ببردى اليكما … فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

وقد كنت عطافا اذا الخيل ادبرت … سريعا الى الهيجا الى من دعانيا

وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى … وعن شتمى ابن العم والجار وانيا

فطورا ترانى فى ظلال ونعمة … ويوما ترانى والعتاق ركابيا

ويوما ترانى فى رحى مستديرة … تخرق أطراف الرماح ثيابيا

وقوما على بر السمينة اسمعا … بها الغر والبيض الحسان الروانيا

بأنكمـــا خليتمـــانى بقفــرة تهيل على الريح فيهـــا السوافيا
ولا تنسيا عهدى خليلى بعد مـــا تقطع أوصـــالى وتبلى عظاميـــا
غداة غد بالهف نفسى على غـد ولن يعـــدم الميراث منى الموانيـــا
يقولون لا تبعد وهـــم يدفنوننى وأين مـــكان البعد الا مكانيـــا
ولن يعدم الوالون شيئا يصيبهم اذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويا
واصـــبح مالـــى من طريف وتالد لغيرى وكان المال بالامس ماليـــا
فياليت شعرى هل تغيرت الرحى رحى المثل او أمست بفلج كما هيا
اذا الحى حلوهـــا جميعا وانزلوا بها بقرأ حـــم العيون ســـواجيا
وهل أترك العيس العبالى بالضحى بركبانهـــا تعلو المتان الديافيـــا
اذا عصـــب الركبـــان بين عنيزة وبولان عاجوا المبقيات النواجيـــا
فياليت شعرى هل بكت أم مالك كما كنت لو عالوا بنعيك باكيـــا
اذا مت فاعتادى القبور فسلمى على الرمس أسقيت السحاب الغواديا
على جدث قد جرت الريح فوقه ترابا كسحق المرنبانى هابيـــا
رهينة أحجـــار وترب تضمنت قراراتها منى العظام البواليـــا
فيا صـــاحبى ، اما عرضت فبلغن بنى مازن والريب ان لا تلاقيـــا
وعطل قلوصى فى الركاب فانهـــا ستفلق أكبادا وتبكى بواكيـــا
وأبصرت نـــار المازنيات موهنـــا بعلياء يثنى دونها الطرف وانيـــا
بعيـــد الـــدار نـــاو بقفـــرة يد الدهر ، معروفا بأن لا تدانيـــا
اقلب طرفى حـــول رحلى فلا ارى به من عيون المؤنســـات مراعيـــا
وبالرمال منا نسوة لو شـــهدننى بكين وفدين الطبيـــب المداويـــا
وما كان عهد الرمل عندى واهله ذميما ولاودعت بالرمل قاليـــا
فمنهن أمـــى وابنتاهـــا وخـــالتى وباكيـــة اخرى تهيج البواكيـــا

✻ ✻ ✻

شاعر هذه القصيدة الرائعة هو مالك بن الريب التميمى من شعراء الاسلام فى بداية العهد الأموى . واخباره القليلة والمتناثرة تؤكد انه كان شجاعا فاتكا وقاطع طريق على نهج صعاليك ذلك الزمان وهو يتحدث فى شعره عن شجاعته ومواقعه بل يعترف صراحة فى احاديثه انه قاطع طريق وكان له رفقة من اصحابه يسومون الناس شرا فطلبهم مروان بن الحكم وهو عامل على المدينة فهربوا وكتب الى الحارث بن حاطب الجمحى وهو عامله على بنى عمر بن حنظلة يطلبهم فهربوا منه ولكن الحارث استطاع ان يقبض على مالك بن الريب واصحابه وبينما يسوقهم جند الحارث استطاع مالك لخفة حركته وسرعته أن يفلت منهم ويقتلهم ويخلص رفاقه ثم هربوا الى البحرين ثم الى فارس وكان سعيد بن عثمان بن عفان واليا ذلك الوقت على خراسان وقد بلغه ما يشيعه مالك بن الريب واصحابه من الفزع والرعب فى قلوب الناس فلقى مالك ورآه من أجمل الناس وجها واحسنهم ثيابا فأعجب سعيدا فقال له : مالك ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق وما يدعوك الى ما يبلغنى عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل قال : يدعونى اليه العجز عن المعالى ومساواة ذوى المروءات ومكافأة الاخوان قال فان أنا أغنيتك واستصحبتك ، اتكف عما تفعل ؟ قال أى والله أيها

الامير اكف كفا لم يكف احد احسن منه فاستصحبه واجرى له خمسمائة درهم فى كل شهر . ومن الواضح ان مالك بن الريب بالهيئة واللسان الذين كان عليهما لا يجعلان منه مجرد قاطع طريق او لص وانما هو فارس شجاع يرى ان ما هو متاح له من الاعمال لا يكافىء طموحه الى المعالى فراى فى قطع الطريق نوعا من الصراع الفردى ضد عالم لا يهمه منه الا أن يجد فيه حظا موفورا من الكبرياء وعلو الشأن ويبدو انه كان يشعر بأن هذا العمل يخالف سنة المجتمع الذى نشأ فيه بل ويتنافى مع الدين الذى ارتضاه والذى كان الايمان به واضحا فى شعره ومن هنا فانه قد انتهز الفرصة التى عرضت عليه لاظهار شجاعة حقيقية فى ميدان الجهاد من شأنها ان تكسبه المعالى التى كان يتوق اليها وقد ارتاح لهذا الاختيار لانه يلائم روحه ومزاجه فهو اذن فارس ضل طريقة ثم اهتدى الى هذه الطريق فبادر الى انتهاجه وكتب الادب والأغانى خاصة تلتمس فى حياة مالك من الاحداث والقصص الغرامية التى تناسب المجتمع الذى كان قائما فى العصر الذى وضع فيه كتاب الاغانى فهم يقولون ان سبب رحيل مالك بن الريب الى فارس حيث لقى سعيد بن عثمان بن عفان هو الخجل من الهزيمة فى الحب امام توبة بة الحمير فيروون ان مالك قد مر بليلى الأخيلية فجلس اليها يحادثها طويلا وانشدها فأقبلت عليه واعجبت به حتى طمع فى وصلها ، ثم اذا هو بفتى قد جاء اليها كانه نصل سيف فجلس اليها فأعرضت عن مالك وتهاونت به واقبلت على صاحبها مليا من نهارها فغاظه ذلك من فعلها واقبل على الرجل فقال من انت قال توبة بن الحمير فقال هل لك فى المصارعة قال وما دعاك الى ذلك وانت ضيفنا وجارنا قال : لابد منه فظن ان ذلك لخوفه منه فازداد لجاجا فقام توبة فصرعه فخجل وقال لا اقيم فى بلد العرب ابدا ويبدو ان القصة مفتعلة ومصنوعة لتسلية المجتمع العباسى . وحين هم مالك بن الريب بالذهاب مع سعيد ابن عثمان بن عفان تعلقت ابنته بثوبه وبكت وقالت له أخشى ان يطول سفرك أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى فبكى وانشأ يقول :

ولقد قلت لأبنتى وهى تسكى ... بدخيل الهموم قلبا كئيبا
وهى تذرى من الدموع على الخدين ... من لوعة الفراق غروبا
عبرات يكدن يحرقن ماجز ... ن به أويد عن فيه ندوبا
حذر الحتف ان يصيب اباها ... ويلاقى فى غير اهل شعوبا
اسكنى قد حززت بالدمع قلبى ... طالما حز دمعكن القلوبا
فسلى الله يدفع عنى ... ريب ما تحذرين حتى اؤوبا
ليس شىء يشاؤه ذو المعالى ... بعزيز عليه فادعى المجيبا
ودعى ان تقطعى الآن قلبى ... او ترين فى رحلتى تعذيبا
انا فى قبضة الاله اذا كنت بعيدا ... او كنت منك قريبا
كم رأينا امرأ اتى من بعيد ... ومقيما على الفراش اصيبا
فدعينى من انتحابك انى ... لا ابالى اذا اعتزمت النحيبا
حسبى الله ثم قربت للسير ... علاوة انجب بها مركوبا

ـــ ان هذه الأبيــات القليلة تؤكد ايمــان مالك بن الريب بالله فهو حسبه وكافية وهو فى قبضة الاله سواء فى قربه من ابنته أو بعده عنها فهو يؤكد لها انه شديد العزيمة لاتثنيه الدموع وفعلا رحل الشــــاعر مع الأمير ســـعيد ويبدو انه قد اتم مهمته العسكرية على أفضل وجه وخلال العودة من المعارك الى ديار اهلهفاجاه المرضوربما كانقد اصيبفىمعركته تلك والرواة يذكرون المرض لا الأصابة فلما أشرف على الموت تخلف معه رجلان من قومه بنى تميم وكان ميلاد هذه القصيدة الشهيرة التى مات بعدها فى الموقعالذى ثقلت عليه فيه العلة ويروى الاصفهانى عن أبى عبيدة أن مالك بن الريب لم يقل من قصيدته الا ثلاثة عشر بيتا والباقى منحول ولده عليه الناس :

داب المؤرخون للادب والادباء على وصف قصيدة مالك بن الريب بأنها فى رثاء نفسه أو شاعر يرثى نفسه . ونحن نعرف أن الرثاء هو التفجع على الموتى وذكر مناقبهم أما اذا طالعنا هذه القصيدة نااننا نرى فيها صورة درامية لموقف الشاعر من الموتبعد أن تأكد من حتمية مصيره الفاجع وهى بموضوعها تعبر عن الموقف النموذجى للتجربة الشعرية حيث يواجــــه الشاعر المستحيل والمطلق معا فبين ارادة الحياة وحتمية الموت تنصهر كل عواطف الشاعر وأفكاره وتتفجر من هذا الوضع المأساوى صــــور القصيدة التى تعبر فى صدق نادر عن حب طاغ للحياة ولا يكاد اسم الرثاء يصح وصفا لها وانما هى قصيدة « وداع للحياة » هذا الوداع القاسى ينطوى على الكثير من دلالات الوجود بما فيه من منطق ولا معقولية . بما فيه من سعادة وحزن . وتدور القصيدة بصــورها وأفكارهــا ودموعها ونشيج موسيقاها حولأركان ثلاثةهىصورة الوطنوفجيعةالاهلوالاشفاق على النفس من الموت وقف الشاعر وصاحباه عند مرو فى خراسان بعد أن ثقلت عليه العلة وأيقن من الموت . والمكان يستثير المكان . فكما أن الحاح صورة الموت قد فجرت صورةالحياة فانصورة المكانالبعيد الذىوجد نفسه فيه قد اظهرت صــورة المــكان ــ الوطن ــ القريب من النفس والقلب والوجدان ــ يبدأ الشاعر القصيدة بتصوير وطنه السمينة ــ حيث يكثر شجر الغضا فى هذا الوادى الذى يقترب من اليمن لانه يذكر سهيلا كمرشد اليه وسهيل نجم يطل من ناحية اليمن كما يقولون وعجيب ان يذكر الشاعر وطنه بشجر الغضا ــ وهو شجر خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى مدة طويلة والشـــاعر يبدأ بمناجاته لمطابقة دلالة هذا الشــجر لمعنيين يترددان فى نفس الشاعر هما معنى الحياة والشجر رمز جميل للحيــاة ومعنى آخر هو دوام اتقاد الحسيرة فى نفسه على هذا الهلاك المبكر . وما أرق الشاعر وهو يتمنىانيبيتليلة بجنبشجر الغضا اىيتمنىليلة فىوطنه يواصل حياته العادية وليت الغضى قد ساير الركب قليلا حتى لا تنقطع عنه صورة الوطن فقد كان شيئا محببا الى نفسه أن يزور هذا الوادى الطيب لو كان قريبا منه ولكنه ليس بالقريب الان ليزار . وبعد أن تلمع صورة الوطن فى ذاكرة تجاهد لتعرض أمام الشاعر آخر مشاهد الحياة

يقسو على نفسه باللوم والتقريع لانه تبع سعيد بن عثمان بن عفان فى هذه الرحلة التى أودت بحياته وغربته عن دياره لقد بدد ما لديه بعد أن ضل ضلالا شديدا وباع الهدى وأصبح مقاتلا فى هذا الجيش . والشاعر لا يحدثنا عن هذه الموقعة التى كان فيها ربما لانه يرى أن ما يواجهه أخطر من أن ينشغل بغيره . ويترك ذاكرته تنساق وراء الرجاء والتمنى وخيالات الأوهام التى يدرك هو أنها غير مجدية وكأنه يحاول التكفير عن ذنبه فيؤكد انه لو عاد الى أهله من هذا السفر فسوف لا يعود الى ذلك مرة آخرى . وبين مشاهد الوطن وتفزيع النفس والعزم والتمنى تلوح صورة ابنته التى تقول له ان سفرك هذا يتركنى بلا أب يرعانى . وكأن هذا الصوت هو الذى يغذى فى نفسه الاحســـاس بالذنب فيعزم على عــدم العودة الى خراســـان مرة آخرى — وكأنه يهجس لنفســـه ما كان أبعدنى عن بابى خراسان فما الذى اتى بى الى هنا . وكما تتناثر صورة الوطن فى القصيدة كذلك تتناثر صورة الأهل . وهو يحدد أهله بأبيه وأمه وابنتيه وزوجته هؤلاء هم كل أسرته التى يحن اليها ويكاد يجن شوقا اليها . وهو يدعو لنفسه وأهله وقومه ونساء قومه ومشاعر الحب التى يدخرها لهم يدعو لكل ذلك وهؤلاء بالخير — وهم يثيرون فى نفسه بقوة صورة نفسه الوحيدة المغتربة وكما يطرح النقيض نقيضه فى القصيدة كلها فان صورة الجمع تطرح صورة المفرد وصورة الأهل تستدعى صورة الغربة .

تذكرت من يبكى على فلم أجد   سوى السيف والرمح الردينى باكيا

— انه يشفق على نفسه اشفاقا رقيقا يتذكر معه صورة الوحشة التى التى هو عليها فليس ثمة من قريب منه يعرف ما هو عليه الاسيفه ورمحه وحصانه الاشقر القوى الذى يسعى الى الماء للشرب وحيدا بعد أن أخذ الموت ساقيه هؤلاء هم رفقتـــه الذين يقهرهم بكاءهم عليـــه عند موته . ولا تفوتنا صورة الاشفاق على الجواد أيضا حيث يشير اليه بأنه لم يترك له الموتساقيا.وكأن الشاعر قد نبه الىأن هذه الاشياء التى ينتظر منها الاشفاق عليه لا تحس ولا تعقل فيعود ليشير الى أن نسوة السمينة يعزا عليهن ما هو فيه — ويرسم الشاعر بعد ذلك بالحوار الدرامى مشـــهد الترقب المرير للموت وهو يطلب من اصحابه ان يرفعوه قليلا ليمتع عينيه بمشهد سهيل هذا النجم الذى يطلع من ناحية وطنه واهله ويطلب اليه الاقامة معه قليلا فقد تبين أن الامر جد لاهزل فيه وأن الموت لا محالة نازل به وهو يوصيهما بأن يوسعا له فى القبر وتثير هذه المشاعر فى نفسه حيث يبدو عاجزا سهل القياد لا حول ولا قوة ولا ارادة صورة أخرى كما قلنا — صورة الرجل القوى الذى كان صعب القياد صبورا على نده فى الحرب. هنا يذكر شجاعته وسرعته الى ميدان القتال لنجدة من دعاه وبينما كان قويا على عدوه كان هينا لينا مع أهله وجيرانه .

وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى   وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
يتراخى فى الاســـاءة الى المقربين   ويســـرع فى الاذى للأعـــداء .

تمتد القصيدة لتنسج بالدموع والندم مشاعر الاشفاق على النفس. هذا الاشفاق الذى يلتمس المشاركة والاحساس بأن من تركهم خلفه سوف يعرفون خسارتهم فيه وهو واثق من مشاعر أهله تجاهه هذه المشاعر التى أنبتها وغذاها هو بأفعاله معهم فهو يوصى صاحبيه بأن يذهبا الى السمينة ويعلنا نعيه على الملأ واشارته الى النساء الجميلات تعكس ولعه بالجمال وانه كان عاشقا للنساء فقد ورد ذكر هؤلاء الحسان مرارا فى القصيدة :

وقوما على بئر السمينة اسمعا   بها الغر والبيض الحسان الروانيا
بأنكما خلفتمانى بقفرة   تهيل على الريح فيها السوافيا

يود الشاعر من كل قلبه وهو يموت ان يطمئن على ان مشاعر الحب والحنان تغمر قلوب أهله وعشيرته ومعجباته من النساء حزنا على وفاته فى الغربة وهو يتوسل بهذه الصور الاليمة للطريقة التى مات بها. ثم يستطرد الشاعر بعد ذلك فى هذا الاشفاق على النفس فنجده يرق ويصفو ويهفو الى المستحيل الحياة — وتمتد عباراته فى صيغة بالغة البساطة والعمق والصدق .

يقولون لاتبعدوهم يدفنونى   وأين مكان البعد الا مكانيا

وأصبح مالى من طريف وتالد لغيرى ، وكان المال بالامس ماليا

انه يتفجع على هذا المال الذى سوف يؤول لغيره وقد كان له من قبل ثم يعرض لصور الحياة فى قومه وكأنه يودع فيها هذه السعادة والراحة والطمأنينة والحب وهو يولى عن الدنيا ويتشبث مرة أخرى بهذا المعنى الذى يردده طوال القصيدة وهو الاطمئنان الى مشاعر الحب عند أهله وهل يضمرون له ما يستحقه فارس مثله من تقدير عظيم واعتزاز جدير بمكانته — هل تتغير شخصية الشاعر الشجاع فيفقد الثقة فى مكانته فى قلوب قومه فهو يطلبها دائما فى القصيدة. أم أنه يلتمس فى هذه المشاعر لونا من الحياة تكون عوضا عن الحياة الحقيقية التى يودعها الآن — أغلب الظن أن الشاعر يبحث وهو يرى فناء الحياة عن لون من الخلود . لون من المبقاء نوع من الوجود فى الخلف الباقى من أهله وعشيرته والمعجبات به. هل هو تشبث بالحياة حتى بعد فناء الحياة ونوع من التعلل بالاوهام .

فياليت شعرى . هل بكت ام مالك   كما كنت لو عالوا بنعيك باكيا
اذا مت فاعتادى القبور فسلمى   على الرمس أسقيت السحاب الغواديا

يعود الشاعر الى احضان أمه فيوصيها بأن تذهب الى القبور تلتمس فيها ايناس الوحشة التى خلقها موته . والشاعر يعطى لعقله أحيانا فرصة للسيطرة على مشاعره حتى يصدع بالأمر الذى ليس منه بد فالحقيقة ساطعة والاوهام باطلة .

فيا صـــــاحبى اما عرضـــــت فبلغن   بنى مازن والريب ان لا تلاقيـــا

هذه هى الحقيقة وما سواها فهو باطل لا جدوى من التشبث به وما اجمل ختام القصيدة حيث يجمع الاهل والوطن والزمان الذى يضم الاثنين فى زفرة تجمع بين الحسرة والتمنى والتلظى بهذا الفراق الاخير .

وما كان عهد الرمـــــل عندى واهله   ذميما ولا ودعت بالرمل قاليـــــا

ينطوى البيت على الندم والحب العظيم لكل شىء فى وطنه انها نهاية توشك أن تكون عزاء فى نفس الوقت والقصيدة خالية من اللفظ الغريب والتركيب المتكلف والصورة المعقدة فهى صورة خالدة لمأساة الانسان ـــ فى مواجهة الموت وهو انسان محب للحياة ولكل ما فيهـــا وهو يضـــطر للتسليم بالحقائق الأليمة فى الوجود هذه الحقائق التى يمثل الموت ذروة اليقين فيها جميعا .

القصيدة اليائية المسماه

« المؤنســـــة »

لقيس بن الملوح ــ مجنون ليلى

تذكرت ليلى والسنين الخواليـــا ... وأيام لا نخشى على اللهو ناهيـا
ويوم كظـل الرمح قصرت ظـلـه ... بليلى فلهانى ومـاكنت لا هيـا
بثمدين لاحت نار ليـلى وصحبتى ... بذات الغضى تزجى المطى النواجيا
فقال بصير القوم ألمحت كوكبـا ... بدا فى سـواد الليل فردا يمانيـا
فقلت له : بل نار ليـلى توقدت ... بعليا تسامى ضوؤها فبداليـا
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
فياليل كم من حاجة لى مهمـة ... اذا جئتكم بالليل لم ادر ماهيـا
خليـلى ان لا تبـكيانى التمس ... خليلا اذا انزفت دمعى بكى ليـا
فما أشرف الايقـاع الا صـبابة ... ولا أنشـد الاشـعار الا تداويا
وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنـان كل الظن أن لا تلاقيـا
لحى الله اقواما يقولون اننـا ... وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
وعهدى بليلى وهى ذات مؤصـد ... نرد علينـا بالعشى المواشـيا
فشب بنو ليلى وشب بنو ابنهـا ... واعلاق ليلى فى فؤادى كما هيـا
اذا ما جلسـنا مجلسا نستلذه ... تواشـوا بنا حتى أمل مكانيـا
سـقى الله جارا لليلى تبـاعدت ... بهن النوى حيث احتللن المطايـا
ولم ينسنى ليلى افتقار ولا غنـى ... ولا توبة حتى احتضنت السواريا
ولا نسوة صبغين كبداء جلعـدا ... لتشبه ليلى ثم عرضـنها ليـا
خليـلى لا والله لا أمـلك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليـا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبهـا ... فهلا بشىء غير ليـلى ابتلانيـا
وخبرتمانى أن تيمـاء منـزل ... لليلى اذا ما الصيف القى المراسيا
فهذىشهور الصيفعناقد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميـا
فـلو أن واش باليمـامة داره ... ودارى بأعلى حضرموت اهتدىليا
وماذالهم لاأحسن الله حالهـم ... من الحظ فى تصريم ليلى حباليـا
وقد كنت أعلو حب ليلى فلم يزل ... بى النقض والابرام حتى علانيـا
فيارب سوى الحب بينى وبينهـا ... يكون كفـافا لاعلى ولا ليـا
فما طلع النجم الذى يهتدى بـه ... ولا الصبح الاهيجا ذكرها ليـا
ولا سرت ميلا من دمشـق ولا بدا ... سهيل لاهل الشام الا بداليـا
ولا سميت عندى لها من سـمية ... من الناس الا بل دمعى ردائيـا
ولا هبت الريح الجنوب لأرضـها ... من الليـل الابت للريح حانيـا
فان تمنعوا ليلى وتحموا بلادهـا ... على فلن تحموا على القوافيـا
فأشـهد عند الله أنى احبهـا ... فهذا لها عندى فما عندها لبـا
قضى الله بالمعروف منهـا لغيرنا ... وبالشوق منى والغرام قضى ليـا

وان الذى املــــت يا أم مــــالك   اشاب فويدى واســتهام فؤاديا
أعد الليــالى ليــلة بعد ليــلة   وقد عشت دهرا لا أعد اللياليــا
واخــرج من بين البيــوت لعلنى   احدث عنك النفس بالليل خاليـا
اراني اذا صـليت يممت نحوهــا   بوجهى وان كان المصلى ورائيـا
وما بى اشــراك ولكن حبهــا   وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا
أحب من الاسماء ما وافق اسمها   أو اشبهه أو كان منه مدانيــا
خليــلى ليلى اكبر الحــاج والمنى   فمن لى بليلى او فمن ذا لها بيـا

لعمرى لقد ابكيتنى يا حمــامة العقيــق وابكيت العيون البواكيــا

خليلى ما أرجو من العيش بعدما   ارى حاجتى تشرى ولا تشنرىليا
وتجــرم ليلى ثم تزعـم أننى   سلوت ولا يخفى على الناسمابيا
فلـم أر مثلينــا خليلى صبابة   اشد على رغم الاعادى تصـافيا
خليلان لا نرجو اللقــاء ولا نرى   خليلـين الايرجوان تلاقيـا
وانى لأستحييك ان تعرض المنــى   بوصلك او ان تعرءضى فى المنى ليا
يقول أناس عل مجنــون عامــر   يروم نسلوا قلت انى لمابيــا
بى اليأس او داء الهيام اصـابنى   فاياك عنــى لا يكن بك مابيــا
اذا ما استطال الدهر يا أم مالك   فشأن المنايا القاضيات وشـانيا
اذا اكتحلت عينى بعينك لم تزل   بخير وجلت غمرة عن فؤاديــا
فأنتالتى ان شئت اشقيتعيشتى   وانت التى ان شئت أنعمت باليا
وأنت التى مامن صديق ولا عــدا   يرى نضوما ابقيت الا رثى ليـا
امضروبة ليلى على أن ازورهـا   ومتخذ ذنبا لهــا أن ترانيـا
اذا سرتفى الارضالفضاء رايتنى   اصانع رحلى أن يميل حياليــا
يمينــا اذا كانت يمينــا وان تكن   شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا
وانى لاستغشى وما بى نعســة   لعل خيالا منـك يلقى خياليــا
هى السحر الا أن للسحر رقيــة   وانى لا الفى لها الدهر راقيــا
اذا نحن ادلجنا وانت امامنــا   كفــا لمطايانا بذكراك هاديــا
ذكتنار شوقىفىفؤادى فأصبحت   لها وهــج مستضرم فى فؤاديـا
الا ايها الركب اليمانون عرجــوا   علينــا فقد امس هو انا يمانيـا
أسائلكم هل سال نعمــان بعدنا   وحب الينا بطن نعمــان واديا
الا ياحمامى بطن نعمــان هجتما   على الهوى لمــا تغنيتمــا ليـا
وابكيتمانى وسط صحبى ولم اكن   أبالى دموع العين لو كنت خاليـا
ويا ايهــا القمر يتــان تجاويـا   بلجنيكما ثم اسـجعا عللانيـــ
فان أنتما اســتطربتما او اردتما   لحاقا بأطلال الغضى فاتبعانيــا
الا ليت شعرى ما لليلى وما ليــا   وما للصبا من بعد شيب علانيـا
الا أيها الواشى بليــلى الا ترى   الى من تشيها أو بمن جئت واشيا
لئن ظعن الاحباب يا أم مالــك   فما ظعن الحـب الذى فى فؤاديا
فيارب اذ صيرت ليلى هى المنى   فزنى بعينيها كما زنتها ليــا
والا فبغضـــها الى واهلهــا   فانى بليلى قد لقيت الدواهيــا
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه   وان كنتمن ليلى علىاليأس طاويا
خليلى أن ضنوا بالبــلى فقربا   لى النعش والاكفان واستغفر ليا

وردت هذه القصيدة فى كثير من المصادر منسوبة لامير العشاق قيس بن الملوح بن مزاحم بن عدس بن ربيعه المعروف بمجنون ليلى . وكان قد احب ابنة عمه . ليلى بنت سعد بن مهدى بن ربيعة . وانشد فيها شعرا جميلا عذبا تقبلته الاذواق والنفوس باعجاب شديد فذاع وشاع بين القبائل حتى عرف أمر غرامه بليلى وكلفه الشديد بها . وكان حبه قويا زلزل روحه وأضعف جسده مما دعا اهله الى محاولة خطبة ليلى له وتزويجه اياها ولكن اباها رفض هذا الزواج عملا بالتقليد المعروف لدى القبائل فى ذلك الحين بحرمان من يشبب بامرأة من الزواج بها دفعا للظنون واسكاتا للالسنة التى قد يجمح بها الخيال الى تصور ان ما جاء فى القصائد انما هو حقائق واقعة وان الزواج ليس الا سترا لهذه الحقائق وتدخل الشفعاء والوجهاء والامراء لعل والد ليلى يرق لهذا العاشق ويزوجه ابنته ولكنه ابى الا العناد ويروى صاحب الاغانى أخبار هذه المساعى الخائبة لدى هذا الوالد العنيد فيقول ان ابا المجنون وامه ورجال عشيرته اجتمعوا الى ابى ليلى فوعظوه وناشده الله والرحم . وقالوا له : ان هذا الرجل لهالك . وانك فاجع به اباه واهله فنشدناك الله والرحم ان تفعل ذلك فوالله ما هى اشرف منه ومالك مثل مال ابيه وقد حكمك فى المهروان شئت ان يخلع عليك ماله فعل . فأبى وحلف بالله وبطلاق امها انه لا يزوجه اياها أبدا وقال : افضح نفسى وعشيرتى وآتى ما لم يأته احد من العرب واسم ابنتى بميسم الفضيحة فانصرفوا عنه . وخالفهم لوقته فزوجها رجلا من قومها وادخلها اليه فما امسى الا وقد بنى لها وبلغه الخبر فأيس منها حينئذ وزال عقله جملة فقال الحى لابيه . احجج به مكة وادع الله عز وجل له مرة أن يتعلق بأستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه مما به ويبغضها اليه . فلعل الله أن يخلصه من هذا البلاء فحج ابوه فلما صاروا بمنى سمع صائحا فى الليل يصحيح . ياليلى فصرخ صرخة . ظنوا أن نفسه تلفت وسقط مغشيا عليه فلم يزل كذلك حتى اصبح حائل اللون ذاهلا ثم قال له ابوه : تعلق بستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى فتعلق باستار الكعبة وقال اللهم زدنى لليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها ابدا فهام حينئذ واختلط فلم يضبط قالوا فكان يهيم فى البرية مع الوحش ولا يأكل الا ما ينبت فى البرية من بقل ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها وطال شعر جسده والفته الظباء والوحوش فكانت لا تنفر منه وجعل يهيم حتى بلغ حدود الشام فاذا ثاب عقله سأل من يمر به من أحياء العرب عن نجد فيقال له : واين انت من نجد فقد شارفت الشام . أنت فى موضع كذا فيقول فارونى وجهة الطريق فيرحمونه ويعرضون عليه ان يحملوه او يكسوه فيأبى فيدلونه على طريق نجد فيتوجه نحوه . « جن قيس اذن وضاع عقله وهزل جسمه وتناقل الناس سيرته وشعره وتزوجت ليلى بالرجل الثرى ورد الذى اختاره لها ابوها . ويسقط المجنون ميتا بين احجار الشعاب التى كان يفر اليها من ظلم العادات والتقاليد يسقط ميتا لتبقى قصة حبه وشعره اغنية الاجيال . عذبة بقدر ما فيها من حزن . ولتصير ليلى واحدة من اخلد المعشوقات فى تاريخ الادب ويظل قيس واحدا من اشهر عشاق العرب الشعراء . ويترك لنا الشاعر ديوانا يوشك ان يكون تجربة واحدة فى الحب والعذاب حب

واحد ومأساة واحدة وعذاب شديد متنوع الصور يبدأ بالفرح العظيم ويتطور الى الجنون لينتهى بالموت المأساوى بين شعاب الصحراء لا يؤنسه الا الوحش الذى كان أرفق به من بعض البشر . ويشك الكثيرون فى سيرة قيس ووجوده اصلا ويتعرض شعره أيضا للاضافة والحذف فالبعض يضيف اليه ما ليس له والبعض الآخر ينسب شعره لغيره . وهذه الاحتمالات التى نحيط بوجود قيس وشعره تثير وتضاعف الجدل حول حياته وتجعل هذه الحياة وهذا الفن مصدر بحث متصل واعجاب نادر بقصة الهوى والعذاب بل وتصير هذه القصة مبعث الهام لاعمال فنية اخرى مثل مسرحية مجنون ليلى لامير الشعراء احمد شوقى هذا هو الشاعر .. اما القصيدة فلها عالمها الرحيب الذى يصور القصة وابطالها وبيئتها أيضا .

يقول محقق الديوان الاستاذ عبد الستار احمد فراج ان هذه القصيدة اسمها المؤنسة وهى اطول قصيدة انشدها وواظب عليها . قيل انه كان يحفظها دون اشعاره وانه كان لا يخلو بنفسه الا وينشدها وفى الخزانة أنها اشهر قصائده اذا اتأملنا هذه القصيدة وجدناها تعبر عن تجربة حياة قيس ابن الملوح كلها . فهى قصيدة حياة لا قصيدة تجربة . انها مجموعة من الانهار الموسيقية والصور الشعرية تتدفق حاملة الى القلب والنفس والروح هذا الحزن العميق الذى انبثق من الفقد والحرمان والهوى المستحيل ولانها قصيدة حياة فهى تبدأ من الطفولة . تبدأ من الذاكرة التى ترحل الى سنوات البراءة والصفاء واللهو حيث لا يوجد عذال ينهون عنه . وكأنه وهو فى غمرة الحرمان من ليلى وفى غمرة حصار التقاليد له يتذكر طفولتهما حيث كانت هذه الطفولة تتيح لهما التمتع بحرية ببعضهما البعض دون رقيب عليهما . وجميل وذو مغزى أيضا ان يبدأ التذكر بليلى فليلى هى جوهر الامال وهى المطلب الاساسى ثم يأتى الزمان الذى يشكل مسرح القصة . ويقفز الشاعر بعد ذلك مباشرة الى الزمن الذى يعيش فيه لانه يتألم ويعانى الى حد يصبح معه التذكر ترفا . انه يصور رحلة له مع اصحابه . وها هى الكواكب فى سواد الليل تختلط عليه بنار ليلى . انه لا يرى هذه الكواكب الا نار ليلى . هو لا يرى ما حوله بل ما بداخله فبينما يقول اصحابه انهم يرون كوكبا يقول هو بل هذه نار لبلى . وتتناثر الابيات فى ذاكرة الشاعر فلا يكاد يقيم لها نظاما منطقيا فيتحدث مرة عن نبات الغضى وهو نبات سريع الاحتراق وكأنه وجد فيه معادلا نفسيا لما بداخله . وان كان هذا البيت لا ينتمى انتماء أصيلا الى القصيدة ثم يتوجه بالحديث الى ليلى ليخبرها ان كانت لا تدرى باهميتها لديه فهو يذهل عن حاجته اذا جاء طالبا لها من تأثير ادمانه التفكير فيها ويطلب من اصدقائه مشاركته فى البكاء والحزن . ويبدو ان الفراق كان يباعد بين ليلى وقيس فى هذه الفترة ولكنه فى الوقت نفسه يمنى نفسه باللقاء المأمول .

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وهو ينكر أن يكون هذا الفراق قد دفعه الى السلوان او انه وجد شفاء لهذا الحب . وكأن الحب مرض أصيب به ولماذا لا يصوره كمريض وقد اتلف عقله واضعف جسده وتركه هائما على وجهه لا يدرى من امره شيئا . وكأنه حلم التذكر كامن فى ضميره وفى عمق مخيلته فنراه يعود اليه مرة اخرى ليبرهن على أن حبه لليلى حب قديم نشأ مع طفولته وطفولتها وشب معهما أيضا . وكان قيس قد بلغه أن الوشاه يتحدثون عنه وعن احتمال نسيانه لليلى فينكر ذلك اشد الانكار . وهو يعلن بتأكيد واصرار أن حب ليلى ثابت فى جوانحه لا يمكن ان ينساه . ولا يؤثر فى هذا الحب فقر ولا غنى ولا توبة ولا نسوة مغريات يحاولن اغراءه والتقريب اليـــه بالتزين على طريقة ليلى لعله يخدع فيهن . جاءت هذه القصيدة بعد فترة طويلة من معاناة حبه بعد ان ظهرت الشائعات عن سلوه وبعد ان تزوجت بغيره فنراه منضجرا من هذه القسمة التى لا يقدر على احتمالها فقد قدر له ان يعشقها وقدر لها ان تكون لغيره .

قضـــاها لغيرى وابتلانى بحبهـــا فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيـــا

يعود مرة اخرى الى التذكر والتأمل والحديث الطويل عن الوشاة الذين يتعقبون خطواته وهو لا يدرى لماذا يحرصون على تصريم حبالهما . ويتأمل الشاعر حاله فيرى ان حب ليلى قد غلبه وقهره حتى تحكم فى أمره لقد كان غالبا على حبه مسيطرا على مشاعره ولكن هذا الحب قد تطور حتى غلبه وتحكم فيه انه يرجوا العدل فى الحب . حتى لا يكون مظلوما مغلوبا على أمره .

فيارب ســـــو الحب بينى وبينها يكون كفافا لا على ولا ليـــا

ونحن نرى الشاعر يذكر دمشق فى قصيدته فأين هو من دمشق لقد كانت قريته فى أرض نجد فكيف نراه قريبا من دمشق حيث يقول «ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا . سهيل لاهل الشام الا بداليا » .

أن هذا البيت يوحى بأن فيه خروجا منطقيا على مكان القصة ولكن القارىء لكتاب الاغانى يرى ان المجنون كان يهيم على وجهه حتى يصل الى اطراف الشام فيسأل عن نجد فيقولون له واين انت من نجد . ان الشاعر فى هذه القصيدة يعطى انطباعا بالغربة فهو يذكر الريح التى تهب نحـــو أرض الحبيبة والتى تهيج أحزانه ويخاطب محبوبتـــه محاولا أن يعطف قلبها عليه . ويدخل الشـــاعر بعد ذلك فى تعبير بليغ عن مدى القداسة التى وصلت اليها الحبيبة فى نفسه . هل هى قداسة حقيقية أم هو ذهول عن نفسه فلا يكاد يدرى ماذا يفعل وهل يدرك المجنون ماذا يأتى من الافعال . ولكنه يدفع عن نفسه رغم ذلك تهمة الشرك بالله . انه على وعى اذن بالحدود التى ينبغى أن يقف عندها . ولكنه غير قادر على ذلك .

أرانى اذا صليت يممت نحوها بوجهى وان كان المصلى ورائيـــا
وما بى اشراك ولكن حبهـــا وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

تبدأ القصيده بعد هذه المرحلة التصويرية الباهرة فى الانتقال الى نوع من المناشدة والحوار مع النفس والبكاء الحزين اشفاقا على النفس مما ألم بها .ويكاد الشاعر أن يدفعنا الى البكاء وهو يكاد يعلن عن فقدان رغبته فى الحياة بعد أن ذهبت ليلى الى غيره . ان الحمائم النائحة تهيج احزانه وهى ليست فى حاجة الى من يهيجها .

لعمرى لقد ابكيتنى ياحمامـــ ـــة العقيق وابكيت العيون البواكيا

ان تعبير العيون البواكى يؤكدان حزن الشاعر غامـــر وان البكاء الذى أثاره نواح الحمائم هوبكاء جديد يضاف الى البكاء المتصل القديم . وتتصاعد الشكوى وينصاعد العذاب وتنتقل القصيدة من العتاب الأليم الى الشكوى الى الاستعطاف الى تأكيد الولاء حتى انه ليتجه براحلته الى حيث تقيم .

يمينا اذا كانت يمينـــا فان تكن شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا

وما أعـــذب جمال هذا البيت الذى يصـــور فيه الشاعر التظاهر بالنوم لعلها حبيبته تأتيه فى الحلم وكأنه قادر على خداع الاحلام ولـــكنه الشوق الغلاب المضنى وتستمر حملة الشاعر الشعواء على الوشـــاة الذى لا يتركونه وشأنه ويؤكد لليلى انه اذا كانت الايام لا تكف عن دفعنا الى الرحيل الهائم وهو احد العلامات الاساســـية والضرورية لحيـــاة البادية . فان حبه لها ثابت ومقيم .

لئن ظعن الاحباب يا أم مـــالك فما ظعن الحب الذى فى فؤاديا

ويقترب الشاعر بعد يأسه القاتم من الموت هذا الشاطىء الاخير لرحلة المعاناة . وانه شاطىء النهاية المحتومة :

رغم انه يعتصم بنوع من الوهم وبصيص من الامل ولكنه لا يملك الا اليأس فى ختام محاولاته .

خليلى أن ضـــنوا بليلى فقربا لى النعش والاكفان واستغفرا ليـــا
والقصيدة بهذا تصل الى ختامهـــا مشحونة بالشجن والرحيـــل والفرح النادر والامل المستحيل . والقصيدة ليست محكمة البناء ولاتحكمها الوحدة العضوية ولا النمو المنطقى ولكنها لا تريد ان تقدم تجربة بل حياة كاملة يحمله الشعر على جناحه . واذا كانت الحياة البشرية قد وجدت ختامها فى الفناء والعدم فان الشعر قد ظل محلقا فى سماء الخلود .

غزليـــات الأحوص

رام قلبى السـلو عن أسماء — وتعزى ومـا به من عـزاء
سخنة فى الشتاء باردة الصيف سراج فى الليلة الظلماء
كفنائى انمت فىدرعأروى وامتحـ — الى من بئر عـروة مائـى
اننى والذى تحج قريش — بيتـه سـالكين نقب كـداء
لملم بهـا وان أبت منهـا — صـادرا كالـذى وردت بـداء
ولها مربـع ببرقة خـاخ — ومصيف بالقصر قصر قبـاء
قلبت لى ظهر المجـن فأمست — قد أطـاعت مقـالة الاعـداء

***

وانى ليدعونى هوى أم جعفـر — وجاراتهـا من سـاعة فأجيب
وانى لآت البيت ما أن احبـه — واكثـر هجـر البيت وهو حبيب
تطيب لى الدنيا مرارا وانهـا — لتخبث حتى مـا تـكاد تطيب
وانى اذا مـا جئتكـم متهلـلا — بدا منـكم وجـه على قطوب
وأغضى على أشياء منكم تسؤنى — وأدعـى الى ما سركم فأجيب
وأحبس عنك النفس والنفس صبة — بقربك والمشى اليـك قريـب
وما زلت من ذكراك حتى كأننـى — أميم بأفيـاء الديار سـليب
أبثك ما القى وفى النفس حاجـة — لها بين جلدى والعظـام دبيب
هبينى امرأ اما بريئا ظلمتـه — واما مسـيئا مذنبا فيتـوب
لك الله انى واصـل ما وصلتنى — ومثـن بمـا أوليتنى ومثيـب
وآخذ ما أعطيت عفـوا واننـى — لأزور عمـا تكرهين عيـوب

***

قالت ـ وقلت تحرجـى وصـلى — حبل امرئ بوصـالكم صـب
واصـل اذن بعلى فقلت لهـا — الغـدر شـئ ليس من ضربى
ثنتـان لا أدنو لوصـلهما — عرس الخليـل وجـارة الجنب
أمـا الخليـل فلست فاجعـه — والجـار أوصـانى به ربـى
وببطـن مـكة لا أبـوح به — قرشـية غلبت على قلبـى
ولو أنهـا اذ مـر موكبهـا — يوم الكديد أطـاعنى صحبـى
قلنـا لها حييت من شـجن — ولركبهـا حييت مـن ركـب
والشـوق أقتـله برؤيتهـا — قتل الظما بالبـارد العـذب
والنـاس ان حـلوا جميعهم شـعبا سـلام وأنت فى شـعب
لحللت شـعبك دون شـعبهم — ولكن قربى منكـم حسـبى
عوجوا كـذا نذكر لغانيـة — بعض الحديث مطيكم صـحبى
ونقل لها فيم الصـدود ولـم — نذنـب بـل انت بدأت بالذنب

أن تقبـــلى تقبـــل وننزلـــكم منا بدار ــ الســـهل والرحـــب
أو تدبـــرى تـــكدر معيشـــتنا وتصدعى متلائـــم الشـــعب

***

أففى كل يوم حبة القلب تقـــرع وعينى لبين من ذوى الود تدمـــع
ابا الجد انى مبتـــلى كل ســـاعة بهـــم له لوعات حـــزن تطلع
اذا ذهبت عنى غواشى لعـــبرة اظل لاخرى بعدهـــا اتوقـــع
فلا النفس من تهما مها مستريحة ولا بالذى يأتى من الدهر تقنـــع
ولا أنا باللائـــى نسبت مرزؤ ولا بذوى خلص الصفا ممتـــع
واولع بى صرف الزمان وعطفـــه لتقطيع وصل خلة حين تقطـــع
وهاج لى الشوق القديم حمـــامة على الايك بين القريتين تفجـــع
مطوقة تدعـــو هديلا وتحتهـــا لـــه فنن ذو نضرة يتزعـــزع
وما شجوها كالشجو منىولا الذى اذا جزعت مثل الذى منه اجـــزع
فقلت لها لو كنت صادقة الهوى صنعت كما اصبحت للشوق اصنع
ولكن كتمت الوجـــد الا ترنمـــا اطـــاع له منى فؤاد مـــروع
وما يستوى باك لشجو وطـــائر سوى أنه يدعو بصوت وتســـجع
فلا أنا ممـــا قد بدا منـــك فاعلمى اصب بعيدا منك قلبا واوجـــع
ولو أن ما اعنـــى به كان فى الذى يؤمل من معروفه اليوم مطمـــع
ولكننى وكلت من كل باخـــل على بمـــا اعنى به وامنـــع
وفى البخل عار فاضح ونقيصـــة على أهله والجود أبقى واوســـع
أجدك لا تنسى ســـعاد وذكرهـــا فيرقاء دمـــع العين منك فتهجـــع
طربت فما ينفعك يحزنك الهـــوى مـــودع بـــين راحـــل ومودع
أبى قلبها الا بعـــادا وقســـوة ومال اليهـــا ود قبلك أجمـــع
فلا هى بالمعروف منك ســـخية فتبرم حبل الوصـــول أو تتبرع
ولا هـــو امـــا عاتب كان قابلا من الهائم الصـــب الذى يتضرع
افق أيهـــا المرء الذى يهمومـــه الى الظاعن النائى المحـــلة ينزع
فما كل مـــا املتـــه أنت مدرك ولا كل ما حاذرته عنك يدفـــع
ولا كل ذى حرص يزاد بحرصـــه ولا كل راج نفعه المرء ينفـــع
وكم ســـائل امنية لو ينالهـــا لظل بسوء القول فى القوم يقنـــع
وذى صمم عند العتاب وســـمعه لما شاء من أمر السفاهة يســـمع
ومن ناطق يبدى التكلم عيـــه وقد كان فى الانصات عن ذاك مربع
ومن ساكت حلما على غير ريبـــة ولا ســـواة من خزية يتقنـــع

***

هذه المختـــارات من شـــعر الغزل لواحد من اهم شـــعراء العصر الاموى وهو الاحوص يقف مرة الى جـــوار مدرســـة عمر بن ابى ربيعة بما عرف عنها من غزل صريح وولع بالجمال وتعقبه فى غـــير حرج ولا تأثم ومرة أخرى يضعه بعض مؤرخى الادب بالقرب من مدرسة جميل بن معمر شاعر الغزل العذرى ولكنه بين هؤلاء شاعر لا تغفـــله

الروايات ولا يهمله التقييم الادبى وقد جعله ابن سلام فى الطبقة السادسة من شعراء الاسلام وجاء موقعه فى تقييم ابن سلام بعد عبد الله بن قيس الرقيات وجميل بن معمر ونصيب ويقول أبو الفرج الاصفهانى «والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنىء الاخلاق والافعال اشد تقدما منهم عند جماعة اهل الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعا وأسهل كلاما وأصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة الفاظ ليست لواحة منهم « أما نسب الشاعر الكامل فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عاصم بن ثابت ابن أبى الاقلح .. وكان جده عاصم رئيس وفد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى احدى قبائل العرب فقتل غدرا وحمله السيل فأخفاه عن عيون المشتركين ولكن يبدو أن الشاعر لم يكن على شبه بجده من الصلاح والتقوى بل هو شاعر أقرب الى المجون واللهو وخلع عذار الحياء بل الى الفسق نفسه وكان لسوء خلقه أثر كبير فى نفور الناس من مصاحبته كما تعرض للنفى والجلد على يد سليمان بن عبد الملك وحين وليى الامر عمر بن عبد العزيز اقصاه عنه وقرب غيره من الشعراء ويبدو انه كان دميما فأشاع ذلك فى نفسه نوعا من الحزن العميق قاده الى التحرر والتحلل والخروج على العرف والدين والاخلاق فى عصره وكلمة الاحوص مأخوذة من صفة الاحمرار فى العينين .

ويبدو أن هذا الاحمرار قد ضاعف من قبح وجهه فكان غير قادر على اقامة علاقات طبيعية مع ربات الحجال فلم يعرف عنه أنه وفق فى علاقة عاطفية ولا أنه كان مرغوبا من النساء شأن عمر بن أبى ربيعة الذى اتسم بالوسامة ورفعه الجاه والطبقة والشهرة بالحظوة عند النساء ولكن الاحواص كان ذا قدم ثابتة فى مجال شعره شهد له بذلك الانداذ من الشعراء فى عصره ومنهم الفرزدق الذى يروى صاحب الاغانى أنه قدم المدينة ثم خرج منها فسئل عن شعرائها فقال رأيت بها شاعرين وعجبت لهما أحدهما أخضر يسكن خارجا من بطحان (يريد ابن هرمة) والآخر أحمر كأنه وحرة على برودة شعره (يريد الاحوص) .

عاش الاحوص حياة النافر من مجتمعه ولم يجد قبولا من الخلفاء الا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان .. ويرى محقق ديوانه الاستاذ عادل سليمان جمال أن الاحوص كان مغرما بسلامة المغنية وانها هى ايضا كانت أيضا مغرمة به فيقول ، أما سلامة القس فهى المغنية التى تعلق بها ، الاحوص تعلقا شديدا ويبدو أنه أحبها وكلف بها « أما الدكتور طه حسين فبعد أن يشرح موقف الشاعر الدينى ويوافق كما يبدو على الرويات المتعددة التى تصفه بالفسق والفجور يعترف بشاعريته ويستشهد على ذلك بآراء كبار شعراء عصره فيه يقول الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الاربعاء « كان الاحوص غزلا ولكنه كان مفتنا فى ضروب الشعر كلها له الفخر الرائع والمدح البديع والهجاء

المقذع وذلك لانه لم يكن متكلفا ولا محتشما وانما كان يرسل نفسه على سجيتها وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد .. كان حلو اللفظ متينة قوى الاسلوب رصينة يبلغ الاجادة اللفظية فى غير تكلف ولا مشقة ولم يكن كغيره من العزلين المكيين يعنى بالمعنى يستخف بالالفاظ وانما كان حريصا على التجويد فى لفظه ومعناه جميعا .

عاش الأحوص بسبب قبح وجهه منحرف النفس وحين تولى يزيد بن عبد الملك دخل عليه الاحوص فقال له يزيد والله لو لم تمت الينا بحرمة ولا توسلت بدالة ولا جددت لنا مدحا غير أنك مقتصر على البيتين الذين تلتهما فينا لكنت مستوجبا لجزيل الصلة منى حيث تقول :

وانى لاستحييكم أن يقودنى الى غيركم من سائر الناس مطمع
وان اجتدى للنفع غيرك منه وانت امام للرعاية مقنع

وقد مات الاحوص فى خلافه يزيد بن عبد الملك كما يرى الاستاذ عادل سليمان بعد حياة من المعاناة والقسوة ولكن الشاعر استطاع أن يضىء هذه الحياة بمصباح شعره الوهاج المتألق . اذا وقفنا أمام هذه الغزليات رأيناها مطابقة لتلك الصفات التى أطلقها عليه النقاد القدامى فهو سهل العبارة واضح المعنى جزل الالفاظ .

تكثر الاسماء فى هذه الغزليات فهو يذكر أم جعفر وسلام وأسماء وغيرهن ولكن ذلك لا يخدعنا فنتصور أنه أقام صلات بكل هاته النسوة اللائى ذكرهن فتلك الأسماء الكثيرة التى ذكرها الشعراء الغزلون انما تدل أولا على نمط من هؤلاء الشعراء هم الذين لا يوقفون حبهم على امرأة واحدة وانما هم يتبعون هواهم فى تعقب الجمال أينما وجد وتدل ثانيا على أن تقاليد المجتمع البدوى ما كانت لتبيح للشاعر أن يصرح باسم محبوبته فكان يتخذ هذه الاسماء بمثابة أقنعة لاسم حبيبته الحقيقية .

والغزلية الاولى من هذه الغزليات تقدم صورة من صور الازمات العاطفية التى مر بها الشاعر فحبيبته أسماء قد سمعت كلام الوشاة فيه فهجرته على ما يبدو مما دفعه الى اليأس منها والبحث عن العزاء والسلوان ولكن أنى له بذلك وهى كما وصفها دافئة فى الشتاء باردة فى الصيف سراج فى الليلة الظلماء .. كل هذه الصفات التى تجمع بين الحواس المختلفة تعمق فى المتلقى لشعره صورة جذابة لهذه الحبيبة الهاجرة وهو يقسم على أن يلم ببيتها حتى لو كانت هذه الزيارة مصدر الالم ولا جدوى منها .. والقصيدة تؤكد ثلاثة معان اساسية الوصف الخارجى للشخصية المحبوبة والعزم على المضى فى الحب مهما كانت العقبات ثم توضيح الشخصية الاجتماعية للحبيبة وطبقتها الراقية التى تنتهى اليها فهى لها مشتى ومصيف ان الشاعر فى هذه الابيات القليلة قد بلغ من نفوسنا حد الاعجاب بهذه السهولة والجزالة والدقة فى اصابة

المعنى الذى يريد ايصاله لنا . فاذا انتقلنا الى الغزلية الثانية رأيناه يقف موقف الاستعطاف والتوبة وطلب الرضا من أم جعفر ويبدو ان الشاعر كان بعيدا عن الحظوة من النساء فجاء شعره يطفح بهذا الالم وهذا الجفاء الذى يعانية من حبيباته ويروى الدكتور طه حسين قصة أم جعفر هذه فيقول :

زعموا انه أى الاحوص أسرف فى ذكر أم جعفر وهى انصارية عفيفة فلما ضاق بها الأمر اقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه فقالت له : أقضنى ثمن الغنم التى اشتريتها منى فأنكر ذلك والحت وصدقها الناس واخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها فكشفت عن وجهها واصر هو على انكاره وقد اجتمع حولهما الناس فلما بالغ فى الانكار قالت أم جعفر صدقت يا عدو الله ، والله ما اعرفك وما تعرفنى ولكنك تذكرنى فى شعرك فتقول قالت لى أم جعفر وقلت لها ويشيع ذلك فى الناس فخجل الاحوص وقارىء الغزلية يوقن من صدق الاحوص فى حبه أو على الاقل فى ولعه بالجمال وقد تكون أم جعفر أخرى هى المقصودة .

تجىء هذه الغزلية حافلة بالاحساس بأن الشاعر غير مرغوب فيه وهو وان كان يرى أن الدنيا تطيب له أحيانا وأحيانا أخرى تخبث فان أزمة الشاعر انه يميل الى من لا يرغب فيه فها هو يجىء متهللا فلا يجد الا التقطيب ويبدو أن الاساءة اليه لم تكن فقط مجرد اهماله بل انه كان يغضى على الكثير ويلجأ فى بعض الحالات الى الامتناع عن زيارتها لاثارة اهتمامها ولكن قربه وبعده لم يسفرا عن تحقيق المرام وها هو فى النهاية يعلن انه لم يملك حججا منطقية لاقناعها فهو يقول لها اما أن أكون مظلوما بسبب هذا الهجر فيحق لها اذن أن تصرف عنه ظلمها أو أنها تعتبره مذنبا فيؤكد لها انه على استعداد للتوبة ويبدى لها الرضى بما تجود به مهما كان هذا الذى تسمح به أريحيتها حتى لو صدر منها بلا قصد . هو راض وسعيد بما يرضيها وهو مقلع عن كل ما يغضبها وما يكون الحب سوى هذا .

أما الغزلية الثالثة فيبدو انها تجربة عابرة لم تبلغ من نفسه حد التوله والهيام ويبدو أن الشاعر فى هذه الغزلية قد وجد الفرصة سانحة للدفاع عن اخلاقه التى كانت موضع شبهة من الجميع . ولا نكاد نقرأ هذه الغزلية حتى نتعجب للتناقض فيها فهو يتعرض لامرأة يزعم أنه يحبها وهى زوجة لعوب تمهد له سبيل القرب منها فتنصحه بأن يصادق زوجها واذا به يصرح بأن اخلاقه لا تتبل هذا الغدر بالصديق فهو يرعى ذمام الصداقة والجوار .

ثنتان لا ادنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب

والذى يخرجنا من هذا التناقض هو التوهم بأن الاحوص لم يكن يدرى بأن لهذه المرأة زوجا أو انه اتخذها ذريعة للدفاع عن اخلاقه . والشاعر فى هذه القصيدة بالغ الحذق فى الحوار وفى الكشف عن شخصية

حبيبته وفى الحديث عن نفسه وفى ابتداع الصور الشعرية البارعة التى تصور قدرته على الصياغة الفنية لاحاسيسه التى قد تكون عادية ولكن التعبير عنها هو الذى جاء غير عادى وكم هو رائع البيت الذى يقول :

والشـــوق أقتله برؤيتهـــا قتـــل الظمـــا البارد العذب

بيت حافل بالتجسيد وقوة التصوير وبراعة التركيب بين الاشياء ليقدم لنا احساسه العارم بحب هذه المراة وشوقه اليها . فاذا جئنا الى غزليته الاخيرة وجدناها حافلة بهذا الايقاع العميق الذى يذكرنا بمجنون ليـلى وبقيس بن ذريح وهذه الغزلية تنفرد بخاصية هامة هى انها تحمل نوعا من التوجع الشامل الذى يقتصر على فشل فى تجربة الحب بل هى تعبير عن فشل واضح فى تجربة الحياة ذاتها . ويبدو أن الشاعر كان كثير الارزاء فها هو يبدأ قصيدته بالاستفهام التعجبى (أفى كل يوم حبة القلب تقرع) واستخدام لفظ القرع يوحى بأن ما يحدث للشاعر هو نوع من المصائب الكبرى والشدائد الثقال فهو ما أن ينعم بذهاب غاشية من غواشى الحياة حتى يزعجه توقع غاشية جديدة فنفسه على خشية دائمة مما يقع لها ومما سـيقع أيضـا ولـكأن الـزمان قـد أولع بـه فهو مـاض فى تقطيع صلاته . أن الابيات الستة الاولى توحى بالظلال القاتمة التى تسيطر على مناخ حياة الشاعر وتؤكد أن هذه الحياة تتأرجح بين المصائب لا تحظى بالراحة ولا بالقناعة . ثم ينتقل الى الحمامة الشهيرة فى الشعر العربى حمـامة الشـعراء المؤنسـة التى تظهـر فى القصائد رفيقـة مواسية لهؤلاء الحزانى الذين لا يجدون تعاطفا من البشر الذين يحيطون بهم وهذه الحمامة التى تنادى هديلا كأنها تطلب المستحيل لا تكاد تقترب من حزنها فى شىء من هـــذا الحـزن الثقيل الذى يجثم على صـدر الشاعر حتى انه حين يحاول المقارنة بينه وبينها يرى نفسه يبكى ويراها تغنى وما ابعد المسافة بين البكاء والغناء فهو اذن لا يقنع بمشاركة الحمامة له فى جزنه . وهو يصرح لنا أن جزنه هذا من أجل من لا أمل فى وصله ولا عطائه .

ولو أن مـــا أعنى به كان فى الذى يؤمل من معروفه اليوم مطمـــع
ولـــكننى وكلت من كل باخــل على بمـــا أعنى بـــه وأمنـــع

وحبيبة الاحوص فى هذه القصيدة ذات اسم جديد هو سعاد .. ان سعاد فى هذه القصيدة مصرة على البعد والقسوة رغم انه يمنحهـا وده أجمع .. وكلمة أجمع هنا جاءت لتأكيد الهوة بين ما يضمره لها الشـاعر وما تفعله به ولا يجد الشاعر امامه سوى أن يجرد من نفسه شخصا آخر أكثر حزما ينهره ويزجره عن المضى فى هذا السبيل اليائس الذى لا امل فيه فهو يؤكد له انه لن يحظى بكل ما يريد ومن ذا الذى يحظى بكل ما يريد فى هذه الدنيا . فلا أنت قادر على أن تنال كل ما تريد ولا أنت قادر على دفع كل ماتحاذر أن يحدث .. ثمة قدرية واضحة تلوح لعينى الشـاعر حتى تهدأ النفس وتستريح..وهو يفترض أن الرضى لا يتحقق حتى ولو نال المراد فكم من أمنية تجلب سخط الناس لو تحققت لصاحبها . يلجأ الشاعر الى حيلة أخرى لتعزية نفسه عن فشلها فى الحب ربما ؟ .... فى الحياة

بكل تأكيد : ان الحكمة الشعرية العربية التقليدية تتوج هذه الغزلية البالغة الجزالة والرقة لتعطى للشاعر راحة متوهمة لم تستطع الحياة أن تمنحها له وهو شاعر سيء الحظ لدى الحسان لم ينفعه معهن شعره الرقيق ولا ميله العميق واذا كانت قصائده تؤكد أنه لم يكسب رضا النساء فهى تؤكد أيضا انه لم يخسر الشعر !!

غزليـــات

عمر بن ابى ربيعة

— ١ —

ليت هندا انجزتنـــا ما تعـــد
وشـــفت أنفســـنا مما تجـــد
واســـتبدت مـــرة واحـــدة
انمـــا العـــاجز من لا يســـتبد
زعموهـــا ســـألت جاراتهـــا
وتعـــرت ذات يـــوم تيتـــرد
أكمـــا ينعتننـــى تبصرننـــى
عمركـــن اللـــه أم لا يقتصـــد
فتضـــاحكن وقـــلن لهـــا
حســـن فى كل عـــين من تـــود
حســـد حملنـــه من شـــأنها
وقديما كان فى النـــاس الحســـد
غـــادة يفتر عـــن اشـــنبها
حـــين تجـــلوه اقاح أو بـــرد
ولهـــا عينـــان فى طرفيهمـــا
حـــور وفى الجيـــد غيـــد
طفـــلة باردة التيـــظ اذا
معمعان الصيف أضحى يتقـــد
ســـخنة المشـــتى لحـــاف للفتى
تحت ليل حـــين يغشـــاه الصرد
ولقـــد اذكـــر اذ قلت لهـــا
ودموعى فـــوق خـــدى تطـــرد
قلت من انـــت فقـــالت انا من
شـــفه الوجـــد وابلاه الكمـــد
نحن اهـــل الخيف من اهـــل منى
مـــا لمقتـــول قتلنـــاه قود
قلت اهـــلا انتـــم بغيتنـــا
فتســـمين فقـــالت انا هنـــد
انمـــا خبـــل قلبى فاحتـــوى
صـــعدة فى ســـابرى تطـــرد
انما اهـــلك جـــيران لنـــا
انمـــا نحن وهـــم شىء أحـــد
حدثونى انهـــا لـــى نفثـــت
عقدا يا حبـــذا تلك العقـــد
كلمـــا قلت متـــى ميعـــادنا
ضحكت هنـــد وقالت بعد غـــد

— ٣ —

ضـــقت ذرعا بهجرهـــا

قال لى صـــاحبى ليعلم ما بى
اتحـــب القتـــول اخـــت الرباب
قلت وجدى بها كوجدك بالمـــاء
اذا مـــا منعـــت برد الشـــراب
من رســـولى الى الثريا بأنـــى
ضـــقت ذرعا بهجرهـــا والكتاب
أزهقـــت أم نوفـــل اذ دعتهـــا
مهجتـــى مالقاتلى من متـــاب
حـــين قالت لهـــا أجيبى فقالت
من دعانى ؟ قالت ابو الخطـــاب
أبرزها مثـــل المهـــاة تهـــادى
بين خمـــس كواعـــب اتـــراب
فأجابت عند الدعاء كمالبى رجال
يرجـــون حســـن الثـــواب
وهى مكنونة تحـــير منهـــا
فى أديم الخـــدين مـــاء الشـــباب
دمية عند راهب ذى اجتهـــاد
صـــورها فى جـــانب المحراب

وتكنفنهـــا كواعـــب بيـض واضـــحات الخدود والأقراب
ثم قالـوا تحبهـــا قلت بهـــرا عـــدد النجـم والحصى والتراب
حين شب القتول والجيد منهـــا حســـن لـــون يرف كالزوياب
اذكرتنى من بهجة الشمس لـمـا طلعـت من دجنـة وسـحاب
فارجحنت فى حسن خـلق عميـم تتهـــادى فى مشيها كالحبـاب
قلدوهـا من القرنفـــل والـدر سخابـا واهاله من سخـاب
غصبتنى مجاجة المسـك نفسـى فسلوهـا ماذا احـل اغتصابى

ياليتنى افتـــدى

ياصـــاحبى اقلا اللوم واحتسبـا فى مستهـام رمـاه الشوق بالذكر
ببيضة كمهـاة الرمـل آنسـة مفتانـة الدل ريـا الخلق كالقمر
ســيفانه فنق جم مرافقهـا مثـل المهاة تراعى ناعم الزهـر
ممكورة الســاق غرثان موشحها حســانة الجيد واللبات والشعر
لــو دب ذر رويدا فوق قرترقها لأثر الزر فوق الثـوب فى ابشر
قالت قريبة لما طال بى سـقمى وأنكرت بى انتقاص السمعوالبصر
يا ليتنى أفتدى ما قد تهيـم به ببعض لحمى وبعض النتصعمرى
قـد يعلق القلب حبا ثم يتركـه خوفالمقال وخوف الكاشح الأشر
دع حبهـا وتناسى الحب تلق به واصبر وكن كصريع قام من سكر
فقلت قولا مصيبا غير ذى خطل اتى به حبهـا فى فطنة الفـكر
سمعىوطرفى حليفاها علىجسدى فكيفأصبر عن سمعىوعن بصرى
لو تابعـانى على أن لا اكلمهـا اذا لقضيت من أوطارها وطرى
دل الفـؤاد عليها بعض نسوتها ونظرة عرضت كانت من القـدر
وقــول بكر الم تلمم لنســألهم وانظر فلا بأس بالتسليم والنظر
لا انس موقفها وهنـا وموتفنـا وتريهـا بتريانا عـلى خطـر
وقولهـا ودموع العـين تسبقها فى نحرها: دينهذا القلبمن عمر

***

شاعر هذه الغزليات هو عمر بن ابى ربيعه اشهر شعراء الغزل فى الأدب العربى ويكنى « أبا الخطاب » ولد كما يقول صاحب الأغانى ليلة مات الخليفة عمر بنالخطاب وقيل فى التعليق على ذلك اى حق رفع وأى باطل وضع . لما عرف عن الشاعر بعد ذلك من ولع شديد بالجمال وتشبيب صريح بالنساء . عاش عمر حياة مترفة لاهية لا هم لـه الا مطاردة أجمل نساء عصره واستخدام شعره وسيلة لاصطيادهن والتحدث اليهن وجـاء شـعره تعبيرا عميقـا عن حيـاة الطبقة الاورستقراطية الحجازية فى ذلك العصر كمـا كان هـذا الشعر جـديدا كل الجـدة فى أسلوبه وفى معانيه وألفاظه ولعله اقرب الشعراء العرب القـدامى من ذوق العصر الحديث ببساطته الشديدة وجراته وانطاقه عـواطف المرأة بمكنون أسرارها . وقد نال الشاعر اعتراف كبار الشـعراء قال عنه الفرزدق بعد أن سمع نسيبه هذا الذى كانت الشعراء تطلبه

فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه وقال جرير « مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر وقال صاحب الأغانى نقلا عن الزبير بن بكار أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبى ربيعة شاعرا من أهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والنحلى بمودته ، وروى صاحب الاغانى قال حدثنا الزبير بن بكار عن عمه مصعب أنه قال :

« راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الاسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الربع وانطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال . واثبات الحجة وترجيح الشك فى موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج العلل وعطف المساءة على العذال وأحسن التفجع وبخل المنازل واختصر الخبر وصدق الصفاء ان قدح أورى وان اعتذر ابرا وان تشكى اشجى وأقدم عن خبرة ولم يعتذر بغرة وأسر النوم وغم الطير وأخذ السير وحير ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأربى وعصى وأخلى وحالف بسمعه وطرفه وأبرم نعت الرسل وحذر وأعلن وأسر . وبطن وأظهر . والح واسف واذل وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه وأذل صعبه . وقنع بالرجاء من الوفاء . وأعلى قاتله واستبكى عاذله ونفض النوم وأعلن رهن منى واهدر قتلاه وكان بعد هذا كله فصيحا »
ان هذا التقييم النقدى القديم لشعر عمر بن أبى ربيعة يعكس تقديرا بالغا لهذا الشعر ولم يحظ شاعر قبله ولا بعده بقدر كبير من الاتفاق على قيمته الشعرية كما حظى عمر بن أبى ربيعة وكان الدكتور طه حسين يرى أن الشعر الغزلى فى العصر الأموى أرفع مكانة وأعلى قيمة من الناحية الفنية وصدق الشعور من الشعر العربى فى كل عصوره وكان الدكتور طه حسين يضع عمر بن أبى ربيعه على رأس شعراء الغزل فى العصر الأموى وبهذا يكون عمر بن أبى ربيعه أعظم شعراء الغزل العربى فى نظر الدكتور طه حسين كما يقول فى كتابه حديث الأربعاء .

« نعم . هو زعيم الغزلين من اهل الحضر فى عصره لا يختلف فى ذلك الناس وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزليين. أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضر بازاء جميل من أهل البادية فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضرى حينما كان جميل زعيم الغزل البدوى ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه الا شىء قليل جدا . فلم يبق سبيل الى المقارنة بينه وبين عمر الذى حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره . والذى استقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن رأيا صحيحا أو مقاربا . ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة فليس من شك فى أن عمر بن أبى ربيعه كان مقدما عليه عند أهل عصره ويجب أن يظل مقدما عليه من الوجهة الفنية . لأنا لا نعرف شاعرا عربيا أمويا افتن

فى الغزل افتنان عمر . فعمر اذن زعيم الغزلين الامويين جميعا لا نستثنى منهم احدا ولا نفرق فيهم بين اهل البادية واهل الحاضرة . بل نحن نذهب الى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبى ربيعه زعيم الغزلين فى الادب العربى كله على اختلاف ظروفه وتباين اطواره منذ كان الشعر العربى الى الآن » وهذه الحقيقة التى يعلنها الدكتور طه حسين تقترب من المجازفة العملية وتتفق مع الآراء التى تلجأ الى التعميم وهى سمة بعض النقاد القدامى . ولا شك أن الاعجاب والتعاطف هو الذى يقود مثل هذه الأحكام المطلقة ولا يملك المعارضون لموقف الدكتور طه حسين كثيرا من الحجج لدحض رايه لأن عمر بن أبى ربيعه فى الواقع قد تجاوز بعذوبة شعره وصحة فهمه للشعر والمرأة على السواء كل شعراء عصره بل لقد استطاع أن يتجارب مع كل العصور وهو أقرب الى ذوقنا وسلوكنا من كل الشعراء الآخرين . وقد صور شعر عمر كما تصور هذه الغزليات التى اخترناها عددا هائلا من العلاقات الغرامية التى تبدو من خلال صدقه الفنى حقيقية على المستوى الواقعى . فأسماء الحبيبات فى شعره يتجاوز الأرقام القياسية لشعراء عصره والعصر الذى سبقه فهو يحب كل جميلة وهو يبدو صادقا فى حبه ولقد اثار هذا الموقف كثيرا من الجدل حول طبيعة عاطفة هذا الشاعر الذى ينتقل كالفراشة من زهرة نضرة الى زهرة أخرى اشد نضارة دون أن يرى فى ذلك غضاضة أو نوعا من التشكيك فى وفائه كان اخلاص عمر الحقيقى للجمال أينما وجده . كان الحب المطلق قضيته المطلقة ولم تكن امراة واحدة بقادرة على صرفه عن هذا الهوى العنيف الجارف لكل امراة جميلة أخرى : ولقد اتهم عمر بالنرجسية فى غرام ذاته والولع بنفسه حتى ليظن قارىء شعره أنه كثيرا ما كان يتغزل فى نفسه بدل التغزل فى المرأة ولكن الدكتور طه حسين يرى فى هذا الولع بالذات تجاوبا مع تهافت النساء عليه وولعهن به يقول الدكتور طه حسين :

« لم يكن عمر مغرورا ولا تباهيا . كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه وانما كان صادقا الحب حقا قويا أيضا ستقول . فكيف يلائم ذلك ما زعمت من أنه كان عذريا ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتابع النساء جميعا بحبه لا يكاد يدع امراة الا ليعرض لأخرى وربما اشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير امراة ؟ كان هذا كله حقا وكان عمر بن أبى ربيعة مع ذلك صادقا الحب قويه أيضا . ذلك لأنه لم يكن عذريا . لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه وانما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير كما قلت آنفا لم يكن حسه يطيع قلبه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل اليها وانما كان قلبه طوع حسه فكان يكفى أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابة . وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له . كان عمر يرى كلما أحب امراة أنه لم يحب قط امراة كما أحبها وانه لن يسلو عنها مهما تتبدل الأحوال وتختلف صروف الحياة . وكان صادقا فى هذا كله . ولكنه لم يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يحب امراة جديدة حبا ليس له بمثله عهد ولن يكون له بمثله عهد ولن يجد سبيلا الى الانصراف

عنه . ومصدر هذا أن قلبه كما قلت يتبع حسه وان النساء كن مفتونات به فكان لا يكاد يقف عند مظهـــر من مظاهر الجمـــال حتى يخلبه مظهر آخر . وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى فكان طمعه متصلا وأمله لا حد له .

يتضح من الغزلية الأولى « هنـــد » مذهب عمر بن أبى ربيعـــة كاملا فى الصياغة الشعرية فهو يعمد الى اختيار أرق الألفاظ واسهلها واجملها ايضا ليصور بها تجربته الشعرية التى تتخذ من المرأة محورها . كما انه ابتكر فن الحوار مما جعل القصيدة تتدفق حيوية وتتخذ طريقا الى النمو المستمر بحيث نستطيع ان نقول أن البناء الدرامى هو من أبرز خصائص شعر ابن ربيعه . انه لا يفرض مشاعره الخاصة على الموقف وانما هو يعرض الموقف كله كاملا امامك لتتأثر به كما تشاء وتفسره كما تهـــوى فهو بهذا يعد أقرب الشعراء الى المفهوم العصرى للشعر فلا تستطيع أن تقول انه شاعر رومانسى يجعل من شعره صورة لهمومه الذاتية بـــل هو شاعر واقعى يجعل من شعره مرآة بارعة تعكس صورة المرأة العربية وبيئتها ويكشف بخياله الخصب عالم هذه المرأة وخصائصها وحيلهـــا ودهاءها وافتتانها به ايضا . انه أول شاعر يواجه المرأة بحقيقة مشاعرها ولذا فقد نال اعجابها لأنه فهمها ونطق بهذا الفهم . فهذه الصـــورة المألوفة التى تصورها القصيدة الأولى تعكس خبرة حقيقية بعالم النساء . فها هن يجتمعن معا ولا يكون لهن من حديث الا الحب والهوى . وتسأل هند اترابها عن محاسنها كما يصفها الشاعر وتريد أن تستوثق أن هذا الوصف الجميل وصف صادق وحقيقى لتطمئن نفسها الى جمالها ويكون لها الحق فى الفخر بهذا الغزل الذى يوجهه لها عمر بن أبى ربيعه . والحبيبة تبدو ساذجة لأنها لا تدرك أن مشاعر النساء يغلب عليهـــا الحسد . هى تسألهن هل هى جميلة حقا كما يصفها عمر . ولكن النسوة يتضاحكن ويقلن لها ان الحب هو الذى يجمل المحبوب « حسن فى كـــل عين من تود » اى ان حسنها هو حسن خاص لا يراه الا عمر وليس حسنا موضوعيا يراه الجميع وقبل أن تفجع هند بهذا الرأى يكشف لها عمر عن خبيئة أسرار هؤلاء النسوة فيقول لها ان الحسد هو الذى دفعن الى هذا الانتقاص من جمالها .

حســـد حملنـــه من شـــأنها وقديمـــا كان فى النـــاس الحســـد

ثم استمر الشاعر فى وصفها بهذه الاوصاف الحسية المؤثرة التى يعرفها البدوى والحضرى على السواء فهى باردة فى القيظ وساخنة فى البرد فيالها من متعة رائعة تمنحها له الحبيبة . والشاعر فى هـــذه القصيدة يستخدم اسلوبا عصريا تستخدمه القصة والشعر والمسرح والسينما فى عصرنا ايضا فهو يعود الى الماضى ليلتقط منه المشاهد التى تســـاعد على تطور الحركة الدرامية ونموها ولذا نراه فى الختام يعود الى الموقف الاول عندما تعرف عليها وحاول أن يؤكد لها قرابة أهـــله من اهلهـــا والصداقة التى تربط الاسرتين وكأنه يحتال بتلك الحيلة للحصـــول على

رضـــاها طمأننهـــا من ناحيـــة أخرى . ثم يختتم قصـــيدته بهذا اللهو العابث الذى بدأ به القصـيدة وهو طلب موعد معها ومراوغتهـا فى ذلك .

كلمـــا قلـت متى ميعـــادنا ضحكت هنـد وقالت بعـد غـد

وكما قال الشاعر فهى دائما مخلفة للوعد . انك تخرج من القصيدة بمتعة حسية تروح عن نفسك فهو لا يبكى ولا يتأوه لانها اخلفت وعده لانه يعـرف أنها لابد أن تجىء فى النهـاية وان هـذا دلال المرأة الطبيعى . انـه اذن شـاعر يتميـز أسـاسا بفهمـه العميق لطبيعـة المـرأة ودلالها ومراوغتها وأنها تحب هذا اللهو منه وهذا العبث ولذا كان الاعجاب به عظيمـا .

أما الغزلية الثانية فقد كرسها الشاعر للوصف وان كان الشاعر لم ينس أن يعبر عن مشاعره أيضا حين يقول أن وجده بها كوجدك بالمـاء البارد ولا ينسى الشاعر أن يدير حوارا بينه وبين صاحبه وبينها وبين جاريتها وها هو يصف عظيم حبه لها حين يقول .

ثم قالـوا تحبهـا ؟ قلت بهـرا عـدد النجم والحصى والتـراب

ان القتول هنا محجوبة الى حد ما وهى لا ترى الا محاطة بالحسان اترابها والشاعر مولع بتصوير مجتمعات النساء حيث يتيح هذا فرصة لنمو الحركة الدرامية اكبر ويكون الكشف عن مكنون اسرارهن اعظم لان النساء اذا اجتمعن تصارحن . أما الغزلية الثالثة فهى تتحدث عن دفاع الشاعر عن نفسه أمام عذاله . وقد نصحته قريبة له بان يترك هذا الحب خوف المقال وخوف الكاشح الاشر فاذا به يفصح عن اصراره وعزمـه على التمسك الشديد بهذا الحب وهنـا نلتفت الى معنى جديد تماما . فالناصحة له تصور حبه كسكرة ينبغى أن يفيق منها ودلالة هذا المعنى أنه ربما وقع فى هذا الحب دون وعى منه . وهى تشير بهذا أو توصى بأنه مجرد وهم عليه أن يتركه ولكن الشاعر ينتفض بعد أن فهم المعنى فيؤكد أن هـذا الحب قد أتاه وهـو فى قمـة اليقظـة والوعى والفهم فهـو حب اليقظـة التامة ومعنـاه أنه حقيقى الى أبعـد الحدود لانه يعرف بوعيـه مزايا هذه الحبيبـة وحقيقة جمالها فما أجمل قول الشاعر :

قالت قريبـة لمـا طال بى سـقمى — وانـكرت بى انتقاص السمع والبصر
يا ليتنى انتدى ما تهيم بـه — ببعض لحمى وبعض النقص من عمرى
قـد يعلق القلـب حبـا ثم يتـركه — خـوف المقال وخوف الكاشح الاشر
دع حبها وتنـاسى الحب تلق به — واصـبر ولكن كصريع تام من سـكر
فقلت قـولا مصيبا غير ذى خطـل — أتى بـه حبهـا فى فطنـة الفـكر
سمعى وطرفى حليفاها على جسدى — فكيف أصبر عن سمعى وعن بصـرى

وربما كانت أوصاف عمر للمرأة أوصافا خارجية حســـية ولكنها فى الواقع تعكس حرارة قوية تعكس صدقا نفسيا وفنيا يتأكد فى هذه الصـــياغة الشعرية الرفيعة وفى هذا الاحساس العميق بمشاعر المرأة وصبواتها ونزواتها .

لقد كانت خبرة الشاعر بمعالم النساء وفهمه لنفسيتها ودرايتـــه العظيمة بالشعر كانت كل هذه العناصر سببا فى هذا التوفيق التى لاقاه معهن واعجابهن الشديد به . ولقد كان لعمر بن أبى ربيعة أســـــلوب جديد ومنهج مبتكر عرف به ومنحـــه لتراث الشـــعر العربى وللأجيال اللاحقـــة له . فكان فتحا جديدا فى عـــالم الشـــــعر وفى عالم فهـــم للمرأة على السواء وبهذا فقد كان حظه العظيم من الحب والاعجاب عادلا على الدوام .

« فى الحب »

للعباس بن الاحنف

القصـــيدة

غضـــب الحبيب فهـــاج لى استـعبار
والله لى ممـــا احـاذر جـــار
كنـــا نغـــايظ بالوصـــال معـــاشرا
لهم الغــــداة بصر منــا استــبشار
اذ لا أرى شــــكلا يــكون كشكلنا
حســـنا ويجمعنـــا هنـاك جـوار
وكأننـــــا لــم نجتمـــع فى مجلــس
فيـــه الغنــاء ونرجس وبهـــار
مـا كـان اشــأم مجلســا كنـــابه
تلك العشـــية والمـــدا حضـــار
مدنيـــــة امس العـــراق محلهـــا
ولهـــا بـــزوراء المدينـــــة دار
أدنـــى قرابتنـــا اليهـــا أننـــا
شخصــــان يجمعنـــا اليـــه نزار
يــا أيهــا الــرجل المعـــذب قلبـــه
اقصــر فــان شــــفاءك الاقصـــار
نــزف البــكاء دمــوع عينـك فاســتعر
عينـــا لغـــيرك دمعهـــا مــدرار
من ذا يعـــيرك عينـــه تبـــكى بهـا ؟
أرأيت عينـــا للبـــكاء تعـــار
الحـــب أول مـــا يـــكون لجاجـــة
تــأتى بـــه وتســوقه الإقـــــدار
حتى اذا اقتحـم الفتى لجـــج الهــوى
جـــاءت امـــور لا تطـــاق كبـــار
واذا نظــــرت الى المحـــب عرفتـــه
وبــدت عليـــه من الهـــوى آثـــار
قــل مــا بــدا لــك أن تقـــول فربمـــا
ســـاق البـــلاء الى الفتى المقـــدار
يا فـــوز هــل لــك أن تعــودى للـــذى
كنـــا عليـــه منـــذ نحن صـــغار
فلقـــد خصصـــتك بالهـــوى وصرفتـــه
عمــن يحــــدث عنـــكم ويغـــار

هــل تذكــرين بــدار بــكر لهــونا
ولنــا بــذاك مخافــة وحــذار
متطــاعمين بريقنـــا فى خلـــوة
مثــل الفــراخ تزقهـا الاطيــار
أم تذكـــرين لــدجلتى متنــكرا
وعــلى فــروا عــائق وخمـــار
فــوددت ان الليــل دام وأنــه
ذهب النهــار فــلا يــكون نهــار
افمــا لذلــك حــرمة محفــوظة
اف لمــن هــو قاطــع غـــدار
ســاتر بالذنب الــذى لم أجنــه
ان كــان ينفــع عنــدك الاقــرار
مــا تأمــرين فدتــك نفسى فى فــتى
مــا تلتقى لجفـــونه اشــفار
من كــان يبغضــكم فبــات مبيتــه
ان الهــوى لــذوى الهــوى ضــرار
صــرم الاحبــة حبــله فــكأنــه
اذ غــادروه وضــره الاضــرار
رجــل تطاول ســقمه فى غــربة
نــزحت بــه عــن اهــله الاســفار
لا يســتطيع من الضــرورة حيــلة
أمســى يــرجم دونــه الاخبــار
حتى أتيــح لــه وذاك لحينــه
ركــب رمت بهــم الفجــاج تجــار
حمــلوه بينهــم نحيــلا جســمه
عــارى العظــام ثيــابه أطمــار
فثــوى تقلبــه الاكــف ملقفــا
ولــه تشــد وتوضــع الاكــوار
حتى اذا ســلكوا بــه فى مهمــه
قفــر تضــل بــه القطــا وتحــار
غرضــوا من النضــو النحيــل فعطــلوا
منــه الــركاب وخلفــوه وســاروا

***

هذه القصيدة واحدة من أعذب شــعر العباس بن الاحنف مع أن معظم اشعاره عذبة رقيقة تخالط النفس فتبهجها ورغم حزنها فهى تسرى عن الحزين . عرف العباس بالولع الشديد بالجمال ولكنه ولع يختلف عن غيره من الغزلين أمثال عمر بن أبى ربيعة وأبى نواس والاحوص وغيرهم فلم يكن متقلبا فى حبه رغم أنه ذكر أسماء بعض النساء غــير فوز التى عرف بهــا فقــد ورد فى شــعره ذكر ظلوم وذلفــاء ونرجس ونسرين

وسحر وضياء وربما كانت هذه الاسماء كلها اقنعة لفــوز نفســها التى حظيت بمعظم شعره . وحتى فوز هذه انما هى الاخرى قنــاع لامرأة بغدادية أحبها العباس بن الاحنف ومنعه العرف الاجتماعى وأســباب كثيرة أخــرى من التصريح بهــا . ولقــد اشــتهر العباس بن الاحنف بالعفــة فى الغــزل كما يقول مؤرخو حيــاته ومنهم صــاحب الاغانى حيث يقول « وكان العباس شاعرا غزلا ظريفــا ومطبــوعا من شــعراء الدولة العباسية وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق . ولمعانيــــه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى وقدمه أبو العبــاس فى كتابه الروضــة عــلى نظرائه وأطنب فى وصــفه وقال رأيت جمــاعة من الرواة للشــعر يقدمونه قال وكان العبــاس من الظرفاء ولم يــكن من الخلعاء وكــان غزلا ولم يكن فاســقا وكان ظاهر النعمــة ملوكى المذهب شديد التترف « من الترف » وذلك بين فى شعره وكان قصــده الغــزل وشــغله النســيب وكان حلوا مقبــولا غزلا غزير الفــكر واســع الكلام كثيرا التصرف فى الغزل وحده ولم يكن هجاء ولا مداحا » . وواضح من هــذا النص الذى أورده صاحب الاغانى أن العباس كان من شعراء الطبــع لا من شــعراء الصــنعة له منهج شعرى متميز يروق لاهــل عصــره يجعل لشعره بها ولالفاظه عذوبة وأنه كان ينتمى من الناحية الاجتماعية الى الطبقة الراقية التى يصرفها الغنى عن التماس الكسب من الــوجوه التى كان يعرفهــا الشــعراء فى ذلك العصر . فلم يــكن العباس فى حاجة الى مدح ولا الى هجاء ذلك أنه كان مترفا لديه ما يدنيه شأنه شأن غيره من عشاق الشعراء الذين كان لهم من رفعة المكانة الاجتماعية ووفرة المال ما يدفعهم الى التفرغ للحب والشعر مثل عمر بن أبى ربيعــة على بعد ما بينهما فى الاسلوب الشعرى ومنهــج الاداء وطبيعة التــكوين ويبدو أنه كان وســيما لبقــا محبوبا من النــاس كانوا يقولون عنــــه « كان والله ممن اذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت وكان فصــيحا جميلا ظريفا اللسان لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت » واذا كانت هذه هى خصال الشاعر فانها كانت الخصال الضرورية لنجاح شاعر فى بغداد وفى عصر الرشيد . لقد تهيأت له كل المواهب التى ترشــحه شاعر الطبقة المترفة اللاهية وكان أحرى به أن يكون متقلبــا فى حبــه استجابة للاقبال عليه نظــرا لصفاته ولكنه كان عفيفا أحب امــرأة واحدة وأبدع فى التشبيب بها كل شعره تقريبا فهو اذن قد خرج عــلى سنة غيره من الشعراء ممن وهبوا مثل ما وهب فهل كان ذلك لضــعف فيه أم لقوة أخلاقية وما تعليل هــذه العفة التى تصرح بها معظم أبيات شعره فى عصر احتفى بالمجون واللهون والغزل الحسى والغناء ومجالس الطرب يرى الدكتور زكى مبارك ان عفة العباس لم تكن علامــة ضعف حيث يقول « المعروف علميا أن الشهوة قوة لانها اقتحام وانتهاب وأن العفاف ضعف لانه زهد وانسحاب والعاشق المنتهب أقوى شعورا من العاشق المنسحب فهو بذلك أقدر على الغزل الساحر والتشبيب الفتان فكيف نعد العفاف من مزايا الشاعر أو العاشق .. افترع الحقيقــة فأقول : ان العفاف لا يكون من علائم الضعف الا ان كان عفاف العاجزين

وانه يكون أعظم قوة حين يصدر عن الرغبة فى التصون ومن حق الرجل أن يجاهد هواه ليضاف الى الاشراف وتلك غاية يتطلع اليها أكابر الفتيان ومن هنا تظهر قيمة الصـــدق العذب فى هذين البيتين :

أتاذنـــــون لصـــــب فى زيارتـــــكم
فعنـــــدكم شـــهوات الســـمع والبصر
لا يضـــمر الســـوء ان طـــال الجلوس بـــه
عف الضـــمير ولكن فاســـق النظـــر

هذه عذوبة الصدق . وهى نهاية السمو الخلقى فالعشق الـــذى يصدر عن النظر غير دنس وهو ليس بآثم عند ضمان عفـــة الضمير . وأن العباس فصل فى قضـــية أخلاقية كانت فى جميع العهود مما يشغل رجال الاخلاق والمهم هو النص على أن عفاف هذا العاشق عفاف أوحت به نية صحيحة والنيات الصحاح هى الاصل فى التماسك الاخـــلاقى وبدونها لا يقوم للاخلاق بنيان » اذن فالعباس لم يكن ضـــعيفا والا لمـــا قاوم غرائزه وأغلب الظن أن العصور التى تموج بالتيارات الحسية وجد فيها اللهو مرتعا فسيحا للنزوات البريئة وغير البريئة كثيرا ما نطـــرح الجـــانب الاخر المضاد للمزاج السائد فرغم غلبة مزاج أبى نواس على عصر الرشـــيد فقـــد كان هـــذا العصر فى حاجة الى توازن لا يقيمـــه الا ظهـــور مزاج مضـــاد . وتلك مزية هامة للعصور الذهبيـــة التى تسمح دائما بوجهة النظر الاخرى نظرا لان العصر نفسه يتســـع حضاريا ويتعمق كلما تنوعت داخله الانماط الانسانية والسلوكية والابداعية لقـــد جاء العباس بن الاحنف ليواجه مزاج أبى نواس وأمثاله ولان العبـــاس كان من طبقـــة غنية مترفة فقـــد جاء سليلها غنى النفس وليست هذه قاعدة بالطبع ولـــكن المعروف عن هذه الطبقـــة فى عصر الرشـــيد أنها كانت تعنى أتم العناية بتعليم وتهـــذيب أبنائها رغم أن العبـــاس ابن الاحنف لم يسلم من المتزمتين فى عصره الذين رأوا فى نجاح شـــعره نوعا من الفتنة للشباب والفتيات والحقيقـــة أنه بدون شـــعر العباس ابن الاحنف لكانت لوحة الحياة الاجتماعية والفنية فى العصر العباسى الاول شديدة النقص والاختلال ، فقد كان شعره أرق من شـــعر غيره وأعذب وقد رشحته هـــذه الرقة والعـــذوبة للغناء والعصر العبـــاسى كان عصر غنـــاء وطرب فقـــد زود الموسيقيين والمطربين باغانيهم الجميلة التى كانت فى الوقت نفسه لا تجاهر بالخروج على مواضعات المجتمـــع وتقاليده وكثيرا ما كان هذا الشعر ينشد فى المجالس على شفاه المغنيين والمغنيات كما كان يستخدم فى المصالحات والمعاتبات بين العشاق ثم أن هذا الشعر قد جاء ليقف فى المنتصف بين شعر الزهد الذى اشتهر به أبو العتاهية وبين شعر الحس الذى اشتهر بـــه بشار بن برد وأبـــو نواس فهـــو واسطة بين طرفين تباعـــد ما بينهمـــا ولهـــذا اســـتقبلته الاذواق أحسن الاستقبال . واذا كان العباس لم يسخر شعره للتكسب فقد جلب عليه هذا الشعر الكثير من الاعجاب والحب وبعض الهـــدايا أيضا واذا كان العباس بن الاحنف قد وقف شعره على الغـــزل فقـــد

راى البعض فى ذلك فقــرا فى افانينه الشعرية ولكن الحقيقة أن تخصصه لم يمنعه من التفنن فى الموضوع الاثير لديه وهو الحب وان هذا القول الذى يزعم بأن عدم تنوع الموضوع يحرمه من الاجادة يشبه من يقول بأن من يخلص حبه لامراة واحدة فقد حرم متعة الحب .

ان تجربة الشاعر الاساسية غالبا ما تكون تجربة واحدة تتفرع الى محاور جانبية ولم يقل أحد بأن العبرة بتنوع التجربة مادامت التجربة الفنية بالغــة النضج والعمق والعذوبة وهى سمات أساسية فى شعر العباس ابن الاحنف ـــ اذا تأملنا هذه القصيدة التى تحمل فى الديوان عنــوانا مختلفا هو « اتعار عين البـكاء ؟ » والتى اخترنا لها الحب عنــوانا لانه اصبح دلالة مراده اذا تأملنــــا هــذه القصـيدة بهرتنا هــــذه العذوبة التى تفيض بهـــا الفاظها وان كانت البــداية تحمل لنا صــورة من الغضب والخـــوف دفعا بالشــاعر الى ان يستجير بالله من غضب حبيبه . وخوف الحبيب الــذى يصــل الى حد الجزع والهلع من غضب حبيبه يطلعنـــا على مــدى ما تــكنه جوانحــه لهـــذا الحبيب انه الحب العظيم الذى يخشى عليـــه من الهجــر ولعــل هذا يذكرنا بالبيت الذى يقــول :

اهابــك اجــــــلالا ومـــا بــك قــــــدرة
علی ولــــكن مــــلء عــــين حبيبهــــــا

هو خوف الحريص لا خوف النافر الكاره . يرسم الشاعر صــورة لشماتة حســـاده فيـــه بعد أن كان يغيظهم بالوصل وأراد الشــاعر انه لم يكن يســلم من مضايقتهم له أيضا وذلك باســتعمال لفظ «يغايظ» التى تدل على المفاعلة ويبــدو أن الغضب قد حـدث أثنــاء جلوسهم مع بعض حســادهم الذين ربما اوقعــوا بينهم فهــا هــو يتشاءم من هذا المجلس الذى كان فيه ويبدو أن الشاعر قــد عانى بسبب خوفه على حبيبه عذابا واهوالا وكانه أصبح يشفق على نفســه بعــد أن كان يشفق من هجر الحبيب فنراه يخاطب نفسه خطابا جهيرا يستخدم هذه الكلمة الشديدة الدلالة على النداء والتنبيه « يا أيها » كان ينادى شخصا بعيدا عنه وهذا يعنى انه كان ذاهلا عن التفكير بالجزع الذى أصــابه فاستخدم أداة قوية ليجذب وعيه الى التدبر فى الامر . وها هو يستخدم مرة أخرى فعل الامر « اقصر » بلهجة قاطعـــة تتلوها جملة تقــريرية مباشرة أقرب الى النثر لانه يخاطب بها العقل فهى كلمة قاطعة صــارمة « ان شفاءك الاقصار » ثم عدل عن فعل الامر الى رســم صــــورة مؤثرة تبدأ بالفعل الماضى « نزف » وهى كلمة توحى بنفاذ الدمع وبــدء انسكاب الدماء انه بعد أن يرسم الصورة يوحى لنا بنوع من الســخرية الخفيفة أمام اصراره على البكاء . ان كنت مصرا على البـكاء فان عينك لم تعد تصلح لذلك فاستعر عينا لغـــيرك تكون كثــيرة الدموع ـــ يا لها من سخرية موجعة تأتى بنا الى أجمل أبيات القصيدة وكانه بهذا الاستفهام

الانكارى ينبهه الى السخرية السوداء التى يوجهها نحوه وكأنه يريد أن يوقظ عقله مرة اخرى ليتدبر ما هو فيه فيقول :

من ذا يعـيرك عينـه تبـكى بهـا
أرأيـت عينـا للبـكاء تعـار

انه يفترض أن المخاطب قد صدقه وأنه سوف يستعير عينا يبكى بها فيباغته بهذا الاستفهام الانكارى الذى يهدف الى التوبيخ والزجر . ثم بدأ يصف الحب ليكشفه لعينه وكأنه لا يعرفه .. ان الشاعر يجـرد من نفسـه شخصا آخر يتوجه له بالنصح ولكنه ما يلبث أن يضيق بهذه اللعبة التى لا جدوى من الاستمرار فيها فيتجـه الى فوز محبوبته يحاول أن يستميلها اليه بدلا من محاولة الاقلاع عن حبها وهى محاولة يعرف هو قبل ناصحه فشلها . هو يذكرها بأسعد الايام « أيام الطفولة » وأكثرها فتنة ويستعير من عالم الطير صورة الشعرية .

متطـاعمين بريقنـا فى خلـوة
مثـل الفـراخ تزقهـا الاطيـار

وما اجمل هـذه الامنية التى يعلنهـا الشـاعر كما أعلنهـا قبله كل الشـعراء انها أمنيـة دوام الليل الذى يجمع العشاق وغياب النهار الذى يفرقهم .

فـوددت أن الليـل دام وأنـه
ذهب النهـار فـلا يـكون نهـار

انه لا يرجو غياب نهار واحد بل يتمنى غياب جنس النهـار كلـه وبعد أن يمعن فى عرض الصور الجميلة يبدأ فى العتاب ثم يصل الى الاقرار بالذنب ويظل فى خضوعه الى أن يضع نفسه فى خدمتها . الى أن يأتى الى نهاية القصيدة فيجسد لنا صورة بالغة الهول والوحشـة تزلزل الكيان انها صورة يضمنها ما بداخله من احساس قوى بفقد أنها وكأنها بتخليها عن حبها له تشبه ذلك المريض الذى ثقـل على رفاقه فى الطريق فأخذوا منـه راحلته وتركوه فى الفلاة وحيدا لانهم يئسوا من شفائه . وكأنه يقول لها انها تشبه هؤلاء الرفاق الذين تركوا رفيقهـم للموت وبهذه النهاية تصـل القصيدة الى قمة الاستعطاف وقمة الاستغفار لهذا الذنب الذى جلب عليه الغضب . هذا هو العباس بن الاحنف لا يدل بشاعريته ولا بوسامته ولا بجاهه الاجتماعى وترفه على حبيبته وانمـا هو عاشق يخضع لقانون الحب وسلطانه يكون حيث شاء له الهوى أن يكون يحمل شـعره كل خصائصـه النفسية وتكوينه الروحى الـذى جعله يذوب رقة ونحولا . واذا كان قد أخلص حبه لامرأة من النسـاء فقـد جاء شـعره هو الاخر مرآة لهذا الاخلاص العميق الذى ينـدر حدوثه معبرا عن شاعرية نادرة الوجود .

« ته دلالا فانت أهل لذاكا »

للشاعر الصوفى عمر بن الفارض

القصيدة

تـه دلالا فانت اهل لذاكا ... وتحكم فالحسن قد أعطاكا
ولك الامر فاقض ما أنت قاض ... فعلى الجمال قد ولاكا
وتلافى ان كان فيه ائتلافى ... بك عجل به جعلت فداكا
وبما شئت فى هواك اختبرنى ... فاختياري ما كان فيه رضاكا
فعلى كل حالة انت منى ... بى اولى اذ لم أكن لولاكا
وكفانى عزا بحبك ذلى ... وخضوعى ولست من اكفاكا
واذا ما اليك بالوصل عزت ... نسبتى عزة وصح ولاكا
فاتهامى بالحب حسبى وانى ... بين قومى أعد من قتلاكا
لك فى الحى هالك بك حى ... فى سبيل الهوى استلذ الهلاكا
عبد رق مارق يوما لعتق ... لو تخليت عنه ما خلاكا
بجمال حجبته بجلال ... هام واستعذب العذاب هناكا
واذا ما أمن الرجا منه ادنا ... ك فعنه خوف الحجى اقصاكا
فباقدام رغبة حين يغشا ... ك باحجام رهبة يخشاكا
ذاب قلبى فأذن له يتمنا ... ك وفيه بقية برجالكا
أو مر الغمض أن يمر بجفنى ... فكأنى به مطيعا عصاكا
فعسى فى المنام يعرض لى الو ... هم فيوحى سرا الى سراكا
واذا لم تنعش بروح التمنى ... رمقى واقتضى فنائى بقاكا
وحمت سنة الهوى سنة الغمض ... جفونى وحرمت لقياكا
أبق لى مقلة لعلى يوما ... قبل موتى أرى بها من رآكا
اين منى ما رمت هيهات بل اين ... لعينى بالجفن لثم ثراكا
فبشيرى لو جاء منك بعطف ... ووجودى فى قبضتى قلت هاكا
قد كفى ما جرى دما من جفون ... بك قرحى فهل جرى ما كفاكا
فأجر من قلاك فيك معنى ... قبل أن يعرف الهوى بهواكا
هبك أن اللاحى نهاه بجهل ... عنك قل لى عن وصله من نهاكا
والى عشقك الجمال دعاه ... فالى هجره ترى من دعاكا
أترى من افتاك بالصد عنى ... ولغيرى بالود من افتاكا
بانكسارى بذلتى بخضوعى ... بافتقاري بفاقتى بغناكا
لا تكلنى الى قوى جلد خان ... فانى أصبحت من ضعفاكا
كنت تجفو وكان لى بعض صبر ... احسن الله فى اصطبارى عزاكا
كم صدودا عساك ترحم شكوا ... ى ولو باستماع قولى عساكا
شنع المرجفون عنك بهجرى ... واشاعوا انى سلوت هواكا
ما بأحشائهم عشقت فأسلو ... عنك يوما دع يهجروا حاشاكا

كيف اسلو ومقلتى كلما لاح … بريق تلفتت للقاكا
ان تبسمت تحت ضوء لثام … او تنسمت الريح من انباكا
طبت نفسا اذ لاح صبح ثنايا … ك لعينى وفاح طيب شذاكا
كل من فى حماك يهواك لكن … انا وحدى بكل من فى حماكا
فيك معنى حلاك فى عين عقلى … وبه ناظرى معنى حلاكا
فقت اهل الجمال حسنا وحسنى … فبهم فاقة الى معناكا
يحشر العاشقون تحت لوائى … وجميع الملاح تحت لواكا
ما ثنانى عنك الضنى فبماذا … يا مليح الدلال عنى ثناكا
لك قرب منى ببعدك عنى … وحنو وجدته فى جفاكا
علم الشوق مقلتى سهر الليل … فصارت من غير نوم تراكا
حبذا ليلة بها صدت اسرا … ك وكان السهاد لى اشراكا
ناب بدر التمام طيف محيا … ك لطرفى بيقظتى اذ حكاكا
فتراءيت فى سواك لعين … بك قرت وما رايت سواكا
وكذاك الخليل قلب قبلى … طرفه حين راقب الافلاكا
فالدياجى لنا بك الان غر … حيث اهديت لى هدى من سناكا
ومتى غبت ظاهرا عن عيانى … الفه نحو باطنى القاكا
اهل بدر ركب سريت بليل … فيه بل سار فى نهار ضياكا
واقتباس الانوار من ظاهرى غير … عجيب وباطنى مأواكا
يعبق المسك حيثما ذكر اسمى … منذ ناديتنى اقبل فاكا
ويضوع العبير فى كل ناد … وهو ذكر معبر عن شذاكا
قال لى حسن كل شيء تجلى … بى تملى فقلت قصدى وراكا
لى حبيب اراك فيه معنى … غر غيرى وفيه معنى اراكا
ان تولى على النفوس تولى … او تجلى يستعبد النساكا
فيه عوضت عن هداى ضلالا … ورشادى غيا وسترى انتهاكا
وحد القلب حبه فالتفاتى … لك شرك ولا ارى الاشراكا
يا اخا العذل فى من الحسن مثلى … هام وجدا به عدمت اخاكا
لو رأيت الذى سبانى فيه … من جمال ولن تراه سباكا
ومتى لاح لى اغتفرت سهادى … ولعينى قلت هذا بذاكا

***

ـ شاعر هذه القصيدة هو سلطان العاشقين ابو حفص عمر بن الحسن على بن المرشد بن على ويعرف بابن الفارض وينعت بشرف الدين ولد عام ٥٧٦ هـ بمدينة القاهرة وتوفى بها عام ٦٣٢ هـ نشأ نشأة صوفية دينية فى كنف والده ابن الفارض الذى كان أحد كبار علماء الدين فى عصره ، وقد ولى مناصب هامة متعددة منها نيابة الحكم وعرض عليه منصب قاضى القضاة ولكن والد الشاعر رفض هذا المنصب الخطير واثر عليه التصوف والتعبد لله بقاعة الخطابة بالجامع الازهر وظل كذلك الى أن ادركته الوفاة وكان والد الشاعر وافدا من حماة الى مصر . وفى ظل مثل هذا الاب الزاهد كانت البيئة الاولى التى بثت فى وجدان الشاعر حب الله والزهد فى متاع هذه الدنيا وينقل الدكتور محمد

مصطفى حلمى عن ابن العماد فى كتابه شذرات الذهب صورة لهـــذه النشاه الاولى فيقول: «نشأ تحت كنف ابيه فى عفاف وصيانه وعباده وديانة بل زهد وقناعه وورع أسدل عليه لباسه وقناعه فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية واخد الحديث عن ابن عساكر وعن الحافظ المندرى وغيره ثم حبب اليه الخلاء وسلوك طريق الصوفيه فتزهد وتجرد وصـــار يستأذن أباه فى السياحة فى الجبل الثانى من المقطم وياوى الى بعض اوديته مره وفى بعض المساجد المهجورة فى خرابات القرافه مرة ثم يعود الى والده فيقيم عنده مدة ثم يشتاق الى التجرد ويعود الى الجبل وهكذا حتى الف الوحشـــة والفه الوحش فصار لا ينفر منه ومـــع ذلك لم يفتح عليه بشىء حتى اخبره شيخه البقال أنه انما يفتح عليه بمكه فخرج فورا فى غير اشهر الحج داهبا الى مكة فلم تزل الكعبة أمامه حتى دخلها» وتروى كتب تاريخ الادب أن ابن الفارض قد رحل الى مكه لكى يفتح الله عليه كما نصحه شيخه البقال . وفى مكة تسامت روحه الى افاق الصفاء الالهية وفتح الله عليه ومكث بها خمس عشرة سنه امتلأ فيهما قلبه بنور الحب الالهى . وتصاعد به عشقه للذات الالهية حتى أصبحت حاله غير احوال الناس فقد عمرت قلبه البهجة واضائت روحه باشراق التجليات عليه كما قال فى هذه الفترة أجمل شعره والتقى بالسهرودى وكان لهذا اللقاء اثر كبير على فكره وشعره . « اقام ابن القاضى بالاراضى الحجازية حتى جاءه هاتف يدعوه للعودة الى مصر فعاد اليها ليحضر وفاه شيخه البقال عام ٦٢٩ هـ ثم لازم قاعة الخطابة بالازهر يحن الى ايامه بمكة عاكفا على العبادة والتقوى بعيدا عن المغريات والماديات الى ان وافاه اجله عام ٦٣٢ هـ . قضى معظم حياته فى ظل عصر الملك الكامل الذى ولى الملك بعد وفاة والده صلاح الدين الايوبى عام ٥٩٨ هـ . وكان ملكا محبا للشعر والشعراء والادب والادباء . وقد جهد هـــذا الملك فى تقريب ابن الفارض اليه وجذبه الى مجلسه ووصـــله بالعطايا والذهب ولكن عمر بن الفارض فر من هذه المغريات وآثر الزهد وصفاء النفس ولذة الفناء فى محبة الله .

هذه سيرة رجل تقترب به من المتصوفة والزهاد أكثر مما تقترب به من الشعراء ولكن قارىء شعره سيرى أنه أمام شاعر باذخ العظمة فى قوة الاداء الشعرى وعمق الموهبة وبلاغة التعبير وحرارة العاطفة واتساع الخيال مما يجعل الناقد مضطرا الى الحكم عليه بالشـــاعرية المطلقة ولا شك أن زهده وروحانية مشاعره قد امدت قصائده بهـــذا الوهج الذى ينبع من قلب العشاق الصادقين وصنعت من هذه الحرارة سبائك ذهبية تجلت فى صياغته الشعرية الآسرة . ولقد عرفت الاداب كلها هذا النمط الفريد من العشاق الذين ادخروا كل حبهم وعشـــقهم وشوقهم للذات الالهية فجاء شعرهم كما جاء شعر عمر بن الفـــارض غزير العطاء منيرا بالصفاء الشامل تلمع فى دقائقه جواهر الحـــكمة وما اعظم هذه الحكمة التى تأتى من الحب وما اعظم الحب الذى يتجرد من العارض الفانى ليتعلق بالباقى الخالد . يقول الدكتور محمـــد مصطفى

حلمى فى كتابه « ابن الفارض سلطان العاشـــقين » كان ابن الفارض الصوفى شـــاعرا نجلت دقه حســـه ورقة نفسه ورهافه شـــعوره فى شعره كما نمثلت فى ذوقه ووجده فهو قد جمع فى شخصـــه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما احدهما نبع الوجد الروحى وثانيهما نبع الطبع الشعرى وهو قد اتخذ من الشعر اداه للتعبير عما تعاقب عليه من رياضات ومجاهدات وما عرض له من أذواق ومواجيد وما انتهى اليه من مكاشفات ومشاهدات ولا يكاد يصطنع النثر فى التعبـــير عن شىء من هذا كله أو بعضه عندما كان يقص قصه واقعة وقعت له او يعقب على كلام ألقى بين يديه اما ذات نفسه واما حياته الروحية فيمـــا بينـــه وبين ربه ونفسه واما حبه الالهى الذى ظل طوال حياته مرتلا لانشودته ترتيلا جميلا ومسبحا فيه بجمال محبوبته تسبيحا طويلا فكل أولئك كان الشعر مراته المصورة له وادواته المعبرة عنه » .

والقصيدة التى نحن بصددها « ته دلالا فأنت اهل لذاكا » تجسد بصورة مثالية هذه العاطفة الغلابة التى ملكت على الشاعر عمر بن الفارض جوانب نفسه وقلبه وروحه فهى غزلية تفيض رقة وجمالا وفتنة من هذه الغزليات المتتابعة التى ينتظمها ديوان الشاعر . ولقـــد اختصر الشاعر حياته بكل ما اشتملت عليه أو امتدت اليه واشتاقت له فى جوهر واحد وعاطفة واحدة رآها جذر الوجود ونوره ومعناه وحقيقته والحكمة البالغة من خلقه هذه العاطفة هى « الحب » وحب عمر بن الفارض تجلى فى كل ماكتب من شعر وهو أعظم ما يكون تجليا فى هذه القصيدة الرائعة « ته دلالا » والقارىء العادى لهذه القصيدة يرى انها مثال يقترب من الكمال للصدق فى العاطفة وللاطار الغزلى فى الشعر . فهى تبـــدو قصيدة غزلية من قصـــائد الغزل الانسانى . ولكن دراسة حياة الشاعر كما قدمنا هى التى تقدم البرهان على جوهر هذه الغزلية . أن بعض قصائد الشـاعر لا تكاد تفترق فى تصويرها لمظاهر العشـــق وعلامات الهوى عن قصائد الحب الانسانى ولكن سيرة الشاعر هى التى تنفى بشكل قاطع ابتعاد هذه القصائد عن ساحة الشعر الصوفى .

كان الشاعر يحمل روحا ترى الجمال فى كل ما خلق اللـــه . فالله هو مصدر الجمال وخالقه ، من هنا ترك الشاعر نفسه تسمو الى افق من المحبة الالهية زالت عنده الفواصل والحدود والاشارات . واستغرق الشاعر فى جوهر عشـــقه غير عابىء بدلالات اللغـــة الانســـانية التى يدرك هو قبل غيره عجزها عن تجسيد وتصوير ما هو فيه وما يحس به ويشـــعر .

من هنا كان همه الاول هو التعبير باللغة التى يملكها . كان غارقا من ظفره لرأسه فى الحب وأراد التعبير عن حبه فجاءت قصائده نابضة

بملامح التعبير الانسانى ولكنها مشحونة فياضة بوجده الالهى . كانت اللغه انسانيه ولكن دلالاتها تجاوزت ذلك الى آفاق اعلى من ذلك وأرحب واعمق . كان المتصوفة الاخرون مثل ابن عربى وغيره يصطنعون لغة خاصه ذات رموز كثيفة غامضه فى محاوله لخلق تعبير مطابق لاحوالهم . ولكن ابن الفارض خرج على هذه القاعدة . كان يحيا وجدا خاصا به وحالة بالغة الخصوصية ولكنه كشاعر آثر أن يستخدم لغة عامة هذه اللغة التى فتنت الناس وتركت أثرا واضحا على مشاعرهم . ولاشك أن هذه القصيدة وغيرها من القصائد قد خلقت تيارا دافقا فى عصرها تعبيرا عن الاعجاب والتأثر بهذا المنهج الذى فضل ابن الفارض أن يبث من خلاله عشقه للذات الالهية . ولعل اول ملاحظة على هذه القصيدة تكمن فى هذه البساطة الشديدة التى تتدفق بها أبياتها فى يسر وعذوبة . وهذه البساطة تعود الى ثلاثة مصادر : المصدر الاول هو مصرية الشاعر ونشأته فى بيئة سهلة واضحة . فالمصرية فى التعبير ومازال هذه الميزة باقية حتى فى الانتاج الادبى المعاصر تعد البساطة والوضوح والسهولة من ابرز سماتها ولا شك ان هذه العناصر تعكس خصائص الشخصية المصرية ذاتها ـ المصدر الثانى هو وضوح العاطفة وتركزها وتمكنها من روح الشاعر حتى اصبح الشاعر بفرحه الغامر بما هو فيه يجيش بالتعبير السهل الواضح فهو غنى بعاطفته غنى بلغته مقتنع بمنهجه الشعرى لا يعانى صراعا من اى نوع . الفرح هو الذى يصنع مثل هذه البساطة والمصدر الثالث هو الغنائية الخالصة التى ترتكز عليها أبيات القصيدة. وهو يعبر عن اعتزازه بمصريته حين يقول :

وطنى مصـــر وفيهـا وطـرى	ولعينى مشـتهاها مشـتهاها
ولنفسى غيـرها ان سـكنت	يـا خليلى سـلاها ما سلاها

ولعل أبرز ملاحظة فنية على هذه القصيدة تكمن فى هذا الاستخدام الرفيع والذى ينطوى بلا شك على بعض المبالغة للمحسنات البديعية مثل الجناس والطباق ورد العجز على الصدر وغير ذلك . ولقد نشأ الشاعر فى عصر كان الولع فيه بهذه المحسنات قد بلغ ذروته . وكثير من القصائد قد غرقت الى اذنيها فى زركشة هامشية قد افقدها روحها الحقيقية ولا شك أن الكثير من الشعراء قد استعذبوا هذا الاتجاه الفنى الذى كان سائدا حتى سقطوا اسرى لجاذبيته الخادعة حتى ماتت قصائدهم ودفنت فى حينها ولكن عمر بن الفارض كان على ولعه بالمحسنات يتميز أولا بموهبة شعرية حقيقية تمثلت فى تمكنه من ناصية اللغة التى يستخدمها ويحسن استخدامها وثانيا وهذا هو الاهم أن عمر بن الفارض كانت لديه العاطفة الحارة والوجدان العامر والخيال الوثاب والافق الواسع مما يجعله قادرا على السيطرة على أدواته من ناحية وعلى النظر الى هذه الادوات كوسيط لتجربته الصوفية والشعرية وليست اللغة بديلا عن هذه الحالة بأى شكل من الاشكال . والى جانب هذه الملاحظة الاساسية حول استخدامه الواسع للمحسنات البديعية هناك هذه القدرة الهائلة

على بناء الصورة الشعرية بناء يوحى بالجدة والقوة . والصورة تتولد عنده من هذا الاستخدام الجديد لقوة الالفاظ وبعث الحركة من خلال المقابلة بين المعانى انه يحقق نوعا من اثارة الدهشة باعادة ترتيب دلالات الالفاظ داخل أبياته وهو يهز بهذا الاستخدام الجديد رسوخ المعانى القديمة وثبات الصور البديهية لينهض من جديد تصور قادر على استيعاب المعانى التى يريد توصيلها الى الآخرين . هو قادر على شحن الالفاظ من خلال تغيير دلالاتها بواسطة خلق علاقات جديدة لها بوهج جديد وحركة نفسية وروحية لم تكن لها قبل هذا الاستخدام فها هو يعطى نموذجا جيدا لاسلوبه هذا فى مثل هذه الابيات :

فاتهامى بالحب حسبى وانى	بين قومى أعد من قتلاكا
لك فى الحى هالك بك حى	فى سبيل الهوى استلذ الهلاكا
عبد رق ما رق يوما لعتق	لو تخليت عنه ما خلاكا

ورغم أن هذه الابيات تطفح حتى الحافة بالمحسنات البديعية الا انه لا يسقط عبدا لهذه المحسنات كما صنع غيره من الشعراء وكما يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى معلقا على هذه الصناعة اللفظية :

ومهما يكن من أمر الصناعة اللفظية التى تبدو واضحة فى بعض المواطن من شعر ابن الفارض فانه لا ينبغى مع ذلك أن ننكر على ابن الفارض انه كان فى أكثر شعره لا سيما الصوفى منه شاعرا مطبوعا بصفة عامة وشاعرا صوفيا ملهما بصفة خاصة . امتاز شعره فى جملته وفى اكثر تفاصيله برقة اللفظ ودقة المعنى وعمق الفكرة وجمال الصورة التى كثيرا ما يتخيلها الشاعر تخيلا نستطيع أن نرى بوضوح أن لغة الشاعر كانت عذبة تستوعب تراث الشعر الغزلى السابق عليه فهو يستخدم كثيرا كلمات الوصل والعذل والفراق والهجر . الذل والخضوع ولكن الموقف العام للقصيدة يؤكد أن الشاعر فى مقام الرجاء والتسليم وهذا الموقف أول العلامات الفارقة بين الحب الانسانى والحب الالهى هو شاعر صوفى من الابيات الاولى فهو يتخلى فى اول ما يتخلى عنه عن ذاته المتمثلة فى ارادته .

ولك الامر فاقض ما أنت قاض	فعلى الجمال قد ولاكا
وتلافى ان كان فيه ائتلافى	بك عجل به جعلت فداكا
وبما شئت فى هواك اختبرنى	فاختيارى ما كان فيه رضاكا

هذا التسليم المشفوع بالرجاء والمبطن بالتضحية بالارادة تفصح عنه القصيدة فى أبياتها الاولى ولا شك أن هذا الموقف الواضح البسيط هو موقف عاشق من نوع خاص فمهما كانت عاطفة العاشق التقليدى ولا يوجد عاشق تقليدى — والعاشق عشقا انسانيا فان ارادته وذاته تظل كامنة تحت خضوعه وتوسله والشاعر فى خضوعه يتداعى ليكون حيثما يريد المحبوب وطوع مشيئته فهو يلوذ بالرجاء والتمنى فاذا لم يسفر

الرجاء والتمنى الاعن الهلاك فهو يطمع فى بقاء عينه لعلها تشاهد من شاهد الحبيب .

ابق لى مقلة لعلى يوما قبل موتى أرى بها من رآكا

وكما يكثر العاشق الذى يعشق عشقا انسانيا من الحديث عن متاعبه الخاصة من المرجفين والوشاة فعمر بن الفارض يفعل كذلك لانه يريد أن ينقل الينا بلغته الشعرية تجربته الصوفية : الشاعر فيه يغالب الصوفى فيغلبه أحيانا وأحيانا يستولى الصوفى على الشاعر فلا يدع له فرصة للفكاك .

شنع المرجفون عنك بهجرى وأشاعوا انى سلوت هواكا
ما بأحشائهم عشقت فأسلو عنك يوما دع يهجروا حاشاكا

ولا يقصر الشاعر فى كثير من أبيات القصيدة فى التعبير عن المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة لطبيعة عشقه وهذه أيضا من العلامات الفارقة بين حبه للذات الالهية وحب غيره لغيره من الفانين .

كل من فى حماك يهواك لكن أنا وحدى بكل من فى حماكا

وهو بالطبع لا يقصد بهذا البيت نوعا من تفضيل نفسه على الجميع ولكنه يشير الى أن حبه فوق حب الجميع وعاطفته أقوى من عواطف الجميع ويجد هذا البيت تأكيدا شاملا له فى البيت الذى يقول فيه الشاعر :

يحشر العاشقون تحت لوائى وجميع الملاح تحت لواكا

هو سيد العشاق ومحبوبه سيد المعشوقين . أن الشاعر الذى يضحى بذاته وحريته وارادته يجد تعبه هينا عليه وسهاده ثمنا عادلا لظهور طيف الحبيب .

ومتى لاح لى اغتفرت سهادى ولعينى قلت هذا بذاكا

هذه القصيدة نشيد من أناشيد الحب الالهى نزلت الى نهر الجمال فهى لا تطيق أن تفارق شاطئيه . تؤكد أن الحب الحقيقى هو السعادة الحقيقية وهو الحكمة والكون كله . فاض قلب الشاعر بأبياته فغمر أرواحنا بهذا الصفاء الذى كان يعمر قلبه . ولن نستطيع أن نصل الى أغوار الدلالات الروحية التى أرادها الشاعر عمر بن الفارض الا اذا تسلحنا بهذا الكنز الغامر من الاشراق لذى كان يصدر عنه فبمثل حاله نصل الى فهمه وليس لنا الا السباحة القريبة من شواطىء نهره الغزير والا الشوق الى المعرفة الواسعة التى لا نملك فك رموزها وحسبنا قطرة من بحره .

غزليـــات ابـى تمـــام

الغزليـــات

— ١ —

بالابســـا ثوب الملاحـــة ابســـله فلأنت اولى لابسـبه بلبســـه
لـــم يعطـــك الله الذى اعطـــاكه حتى استخف ببـــدره وبشمسه
رشـــا اذا ما كان يطلق نفسه فى فتكه امر الحيـــاء بحبســـه
وانا الذى اعطيتـــه محض الهوى وصميمه واخذت عذرة انســـه
فلئن جنيـــت ثمـــاره وغرســـته ما كنت اول من جنى من غرســـه
مولاك يا مولاى صـــاحب لوعـــة فى يومه وصـــبابة فى امســـه
دنف يجود بنفســـه حتى لقـــد امس ضعيفا أن يجود بنفســـه

— ٢ —

بنفس حبيب ســـوف يثكلنى نفسى ويجعل جسمى تحفة اللحد والرمس
جحدت الهوى ان كنت مذ جعل الهوى محاسنه شمسى نظرت الى الشمس
لقد ضاقت الدنيـــا على بأسرها بهجرانه حتـــى كأنـــى فى حبس
أسكن قلبـــا هائمـــا فيه مأتم من الشوق الا ان عينى فى عرس
وانـــى لاخشى ان تراقت أمـــوره به أن يثور الجن فيه على الانس

— ٣ —

معتـــدل لـــم يعتـــدل عد لـــه فى عاشـــق طـــال به خبـــله
أطرافـــه احســـن ام ظرفـــه أو وجهـــه احسن ام عقـــله
انظر فمـــا عاينت فى غـــيره من حسن فهـــو لـه كـــلـه
لو قيـــل للحسن تمنـــى المنـــى اذن تمنـــى انـــه مثـــله
اى خصـــال حازهـــا سـيدى لو لم يكدر صـــفوها مطـــله

اســـتزارته فكرتى فى المنـــام فأتانـــى فى خفيـــة واكتتـــام
الليـــالى احفى بقلبى اذا مـــا جرحتـــه النوى من الايـــام
يـــا لهـــا لذة تنزهـــت الارو اح فيهـــا سرا من الأجســـام
مجلس لـــم يكن لنا فيه عيـــب غير انا فى دعـــوة الاحـــلام

— ٥ —

الهوى ظـــالم وانت ظـــلوم كيف يقـوى عليكمـــا المظلوم
للهوى جـراة ومنك صـــدود ليس لى منكمـا محب رحيـــم
قد برانى الهـــوى ودله عقـلى حـــل بى منكما البلاء العظيـــم
انما يعرف الســـهاد طول الليل من حبـــن وصـــله مصروم

— ٦ —

رقـــادك ياطرفى عليك حـــرام فخـل دموعـا فيضهن سـجام
ففي الدمع اطفاء لنار صـــبابة لها بين أثنـــاء الضـلوع ضرام
ويا كبدى الحرى التى قد تصدعت من الوجد ذوبى ما عليـــك مـلام
قضيت ذماما للهوى كان واجبـا على ولى ايضـــا عليه ذ مـــــام
وياوجه من ذلت وجوه أعـــزة له وســـطا عـــزا فليس يرام
أجر مستجيرا فىالهوى بك باسطا اليـــك يديه والعيون نيـــام

— ٧ —

الحسن جزء من وجهـك الحسن يا قمـرا موفيـــا على غصـــن
ان كننت فى الحسن واحدا فأنـــا يا واحد الحسن واحد الحـــزن
كـل ســـقام تراه فى أحـــد فذاك فرع والاصـل فى بدنـــى
كوامن الحـــب قبـل كونك فى افئدة العاشـــقين لم تـــكن

— ٨ —

لاتصـــدى فالصـد أمر عظيم وارحمـــى فالمحب بر رحيـــم
أمن العدل ان قلبـــك ســــال والهـــوى ثابت بقلبى مقيـــم
ثم الحقت بى الاســـاءة والظلم وغـــيرى هو المسىء الظـــلوم
ما اجترمنـــا اليك جرمـا ولكن حـــب هذا الزمـان ليس يدوم

شاعر هذه الغزليات هو ابو تمام حبيب بن اوس الطائى واحد من ابرز ثلاثة شعراء عرفهم العصر العباسى كما يقول صاحب الوسيط فى الادب العربى والاخران هما البحترى والمتنبى .. وابو تمام صاحب مذهب شعرى جدد به دبياجة القصيدة العباسية واصبح علما على منهج تفرد به . ولد عام ١٩٠ هـ بقرية جاسم قرب دمشق ورحل الى مصر صغيرا وكان يعمل سقاء بجامع عمرو ابن العاص . وتأثر بعلماء المسجد وادبائه فتعلم العربية وحفظ مالا يحصى من شعر العرب ونبغ فى قوله ثم خرج الى بغداد حيث دبج المدائح فى المعتصم ووجد عنده حظوة عظيمة واكثر من مدائح الكتاب والوزراء والعمال والولاة وتقرب الى كبار المسئولين حتى ولاه عبد الحسن بن وهب بريد الموصل فأقام بها الى ان مات عام ٢٣١ هـ

يقول عنه صاحب الاغانى « شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعانى غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره وله مذهب فى المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار فيه والسلوك فى جميع طرقه والسليم من شعره النادر شىء لا يتعلق به أحد . وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا وفى عصرنا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف واقوام يتعمدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك . » ولقد افرط ابو تمام فى المدائح حتى حصد بها مغانم غيره من الشعراء واخملهم حتى انهم يقولون بأنه لم يترك شيئا من الجوائز لشاعر غيره لجودة شعره فلما مات قسمت الجوائز التى كان يأخذها على باقى الشعراء . ولعل فنه الجديد الذى يقوم على الخيال المركب وتوليد الصور الشعرية الغريبة ونبذ المألوف من المعانى والصياغة القوية غير المألوفة لشعراء ذلك العصر هى التى ادهشت الامراء وحببتهم فى شعره وقد كان ابو تمام لمعرفته بمستوى شعره وطمعه ايضا انتقاما لايام الفقر الاولى فى حياته حيث كان أبواه فقيرين يترفع عن الجوائز التافهة ولا يرضيه الا المال الغزير ويروى صاحب الاغانى لما شخص أبو تمام الى عبد الله بن طاهر وهو بخراسان اتبل الشتاء وهو هناك فاستثقل البلد وكان عبد الله وجد عليه وابطأ بجائزته لانه نثر عليه الف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فاغضبه وقال يحتقر فعلي ويترفع على . فكان يبعث اليه بعض الشىء كالقوت فقال أبو تمام :

لم يبق للصيف لارسم ولاطلل ... ولا قشيب فيستكسى ولا سمل
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما ... يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت ... يسراه وهى لنا من بعدها بدل

فبلغت الابيات ابا العميثل شاعر عبد الله بن طاهر فاتى ابا تمام واعتذر اليه لعبد الله بن طاهر . وعاتبه على ما عتب عليه من اجله . وتضمن له ما يحبه ثم دخل الى عبد الله فقال : أيها الامير أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة في تدر — والاحسان فى شعر — والشائع من ذكره لكان الخوف من شره والتوقى من ذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته فكيف وله بنزوعه اليك من الوطن وفراته السكن وقد قصدك عاقدا بك أمله معملا اليك ركابه متعبا فيك فكره وجسمه وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضيا ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع الا قوله .

تقول فى قومس صحبى وقد اخذت ... منا السرى وخطا المهرية القود
امطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله . لقد نبهت فأحسنت وشفعت فلطفت وعاتبت فأوجعت ولك ولابى تمام العتبى ادعه يا غلام فدعاه فنادمه يوما وأمر له بألفى دينار وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر بحراسته الى آخر عمله . ولم يكن المدح هو الفن الاوحد الذى برز فيه أبو تمام بل ان مراثيه وفى مقدمتها مرثيته الشهيرة فى محمد بن حميد الطوسى تؤكد أنه كان شاعرا يجيد الرثاء اجادة تضعه فى قمة شعراء هذا الغرض القديم وكان تصويره للطبيعة جديدا فى ادائه فقد أبدع فى هذا الجانب الهام والذى يكاد الشعر العربى يبدو فيه فقيرا بجانب الاغراض الاخرى ولا شك أن شعره الغزلى قد ارتوى من خبرته الفنية الطويلة فجاء هو الاخر ناضجا رقيقا بالغ العذوبة رصينا جذل العبارة نضير الصورة . ولقد تأثر أبو تمام فى شعره وحياته بثقافة عصره هذه الثقافة التى شاعت فيها روح الترجمات من الاداب الاجنبية خاصة الاداب اليونانية والهندية وظهرت فى شعره هذه الافكار الفلسفية والاقيسة المنطقية التى تؤكد أن عقله وروحه قد انغمسا بقوة فى هذه الثقافات الجديدةالنشيطة والتى ذاعت وأثرت لا فى علماء الكلام والفقهاء وحدهم وانما تمثلها الشعراء أيضا يقول الدكتور « شوقى ضيف » وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقض على معارف عصره انقضاضا . تمثلها تمثلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق . أما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه . وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها فى الجاهلية والاسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده لخالد ابن يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى وكذلك حين يقرن وقائع بعض الابطال ودويها فى الخافقين الى وقائع جاهلية واسلامية مشهورة . ثم يقول الدكتور شوقى ضيف . وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الادلة المنطقية وهى عنده تستمد من نفس احساسه العميق بتشابك حقائق الكون فاذا بعضها يرى من خلال بعض بل اذا بعضها يتخذ دليلاً وحجة على بعض . ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب اذ يجلله دائما شفق يأخذ بالالباب ونعجب اذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على اكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع حتى قالوا أنه أفسد الشعر وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعا تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق وبالشعر العربى قديمه وحديثه كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره . بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية .

يستقيم لنا من قراءة شعر أبى تمام فى مراثيه ومدائحه ووصفه للطبيعة منهج شعرى متميز تتضح خصائصه فى غرابة صوره هذه الغرابة الناشئة عن تجاوز العلاقات الفنية داخل هذه الصور لحدود البلاغة القديمة وغموض معانيه لجموح خياله وشططه الفلسفى وكثرة الاقيسة العقلية والمنطقية فى شعره وانتقاء الغريب من الالفاظ استجابة

للمبالغة الخيالية والنفسية التى كانت من اهم سماته . فهل ينطبق هنا المنهج الشعرى عند ابى تمام على غزلياته التى نتعرض لها الآن ؟ اذا تأملنا الغزليـــة الاولى برزت لنا على الفور الصورة العقلية المنطقيـــة وراء صورها . فها هو يأمر حبيبه باستهلاك ثوب الحسن ومعنى هـــذا الاستهلاك هو التمتع به فهو ينصحه بالتمتع بهذا الجمال الذى هو أولى به وها هو المنطق يبرز فى هذه المقارنة بين تفوق جماله الساحق وبين بهاء الشمس والقمر فالبيت كله يعكس قياسا منطقيا ونظرة عقلية وها هى المطابقة فى البيت الثالث بين الاطلاق والحبس وها هو يرى أن ماجناه من غرسه كان منطقيا ثم تخف قبضة الصورة العقلية ليظهر التقســيم البلاغى ورد العجز على الصدر حين يقول :

دنف يجود بنفســــــه حتى لقد أمسى ضـــــعيفا أن يجود بنفســــــه

ان اللغة فى هذه الغزلية واضحة لا غموض فيها وربما كان الدافع الى ذلك هو الحاجه على توضيح موقفه من هذا الحبيب الذى يضن عليه عليه بجماله وهو يحاول ان يقنعه بأنه انما يعانى من اجله فى يومـــه وينصحه بالتمتع معه بهذا الحسن الباهر الذى يجاوز بهاء الشمس والقمر . ولا نملك الا الاعجاب بهذه الصور البارعة التى تتحرك فى اطار مألوف من قيود البلاغة القديمة والمحسنات البديعة المعروفة ولكن تظل هـــذه الصور وهذه الغزلية اكثر اثارة لموقف العقل من موقف الحس فاذا انتقلنا الى الغزليـــة الثانية . وجدنا الشاعر مازال يشكو من هجران حبيبه هذا الهجران الذى تركه فى الغزلية الاولى على حدود المرض ولكنه فى الغزلية الثانية يقترب به من الموت نفسه . بل أن هذا الحبيب القاسى ســـوف يقدم حبيبه تحفة للحد والقبر . وها هو الشاعر يلجأ الى براعته وذكائه فى استمالة قلب حبيبه هذا التودد الذى يصعد به الى المبالغة . وهو مرة أخرى يضع حبيبه فوق مرتبـــة الشمس المضيئة فهـــو يعلن حجوده للهوى ان كان منذ اتخـــذ محاسن الهوى شمسا له قد نظر الى هذه الشمس الحقيقية . وأى تعبير جميل غير مباشر يتضمنه هذا البيت انه يبدو كما لو كان بيتا تقريريا مباشرا ولكنه فى الواقع بيت شديد التركيب غنى بالمعانى الكثيرة فهو فى بدايته يتهم بنفســـــه بجحود الهوى . وهذا التقديم للجحود يعنى أنه يراه فادحا وجليلا وغير محتمل وهو يمزج بين الحب والمحبوب حين يتحدث عن المحاسن فهو قد اتخذ هذه المحـــاسن الرائعـــة شمسا له . والشمس هنـــا اعظم وأجل قدرا من القمر . فهو يرى فيها قوة الحياة ذاتها . النور والدفء وقوة النماء ويدفع الهجران الشـــاعر الى اعـــلان الضيق بالدنيـــا كأنه فى ســـجن بسبب الهجر الا انه يقفز الى بيت جميل تلعب فيه المقابلة دورا دراميا بديعا . فها هى كلمة ـــ أسكن ـــ تحمل الكثير من الدلالات الموحية بالهياج والجزع والقلق واللوعة كل هذا فى كلمة واحدة وكأنه يمسك بجواد جامح يريد أن يطير ويركض ثم تأتى المقابلة بين القلب الجاثم فى مأتم الاحزان والعين المتهجة بالعرس الذى خلقته جمالها . فقلبه حزين لعدم طمأنينته وخوفه وفزعه

وعينه سعيدة كأنها فى عرس . المقابلة بين المأتم والعرس ليست وحدها التى خلقت جمال الصورة وانما الفصل اللا منطقى بين القلب وبين مدركات الحواس . هذا الايهام الشعرى الذى يهدف الى بيان حالين متناقضين بل ويهدف الى تجاوزهما والى تصوير قوة الهجر وجمال المحبوب لتكون اللوعة تامة التصوير . ثم يأتى الى بيت تفسده المبالغة حتى تقتله حين يرى أن الجن ستثور على الانس بسببه . هى مبالغة فاترة لانها تأتى من خارج تجربة الشاعر وعناصرها الذاتية . وفى الغزلية الثالثة نجد الشاعر وقد فرغ من بث لواعجه الى تصوير أحوال المحبوب وهو تصوير تلعب فيه المحسنات البديعة والتلاعب بالالفاظ دورا أساسيا — فها هو المحبوب . معتدل لم يعتدل عدله ورغم كثرة الجناس فالبيت لا يفقد جماله فالمعتدل الاول هو اعتدال القوام . ولم يعتدل عدله تعبير عن ظلمه فى حبه وفى حكمه على هذا العاشق الذى طال به الجنون ثم يتجه الشاعر الى التقسيم أطرفه أحسن أم ظرفه . أو وجهه أحسن أم عقله . يريده تاما كاملا فى الحسن والظرف والعقل . وما يكون الكمال البشرى اذا خرج عن جمال الهيئة والطبع وصحة العقل . انه فى هذا البيت الراقص يعطى انطباعا بمعنى تام مؤكد — واذا كانت المبالغة قاتلة لبعض الابيات مثل ثورة الجن على الانس فانها هنا فى البيت الذى يقول فيه :

لو قيل للحسن تمن المنى اذن تمنى انه مثله

هى هنا مبالغة مقبولة تشع فتنة ورقة . ان أبا تمام يستخدم البلاغة التقليدية ببراعة المكتشف الاول لقد كان واحدا من مؤسسى علم البديع بحيله الشعرية ولكن الشعراء الذى أفسدوا هذه المحسنات كانوا لا يملكون عبقرية هذا الشاعر الفذ . ثم ننتقل الى الغزلية الرابعة فاذا تعبيره عن الحلم يأخذ شكلا متوسطا ليس فيه براعة التجربة الحسية ذلك لانها تأمل عقلى خالص . أما الغزلية الخامسة فهى تمضى فى نفس منهج أبى تمام الشعرى . فها هو يواجهنا من البداية بهذه الحجة العقلية القوية فالهوى ظالم بطبيعته والحبيبة أشد ظلما من الهوى . ولذا يتساءل الشاعر تساؤلا انكاريا يائسا باطلا كيف ينجو المظلوم من بطش ظالمين . الهوى يدفعه الى الاقدام والالحاح وهى هاجرة تصده فكأنه مدفوع بقوة قاهرة هى الهوى لا يملك لنفسه فكاكا منها وهى ممتنعة لا تنصفه فيخف حزنه وألمه ثم يشكو سقمه وبلاءه وسهر الليالى والسهاد أما الغزلية السادسة فهى أشد هذه الغزليات لوعة وحزنا وها هو فيها لا يتجلد . بل يدعو عينه الى ترك النوم وانهمار الدموع فقد يطفىء الدمع نار الهوى المتأجج فها هى نار الحب مشتعلة فى جوانح نفسه وبين ثنايا الضلوع وها هو يقول لكبده التى تصدعت ذوبى ، ما عليك ملام هو يدرك ما فى كبده من حرارة الحب وعنائه فلا لوم على هذه الكبد بعد أن تصدعت من أن تذوب فالعبء ثقيل والهم لا يطاق . وكان الشاعر

قد انتهى الى يأس لا شفاء منه بعد أن قضى ما عليه من واجبات وأعباء تجاه هذا الهوى وانتظر الجواب فلم يجد الاخرين يرعون ذمامه كما رعاه لهم . هل هى غزلية أم شكوى اليمة من الهجر . أن هذه المقطوعة تبتعد عن المحسنات البديعية والصور العقلية لان قوة الاحساس والانفعال بها قد صاغتها بعيدا عن ترف العقل واقيسته وتأملاته فدموعه المنهمرة لم تترك له فرصة لاختيار المنطق . ويعود فى الغزلية السابعة الى لعبته المفضلة الى صورة العقلية ومقابلاته . وهذه الغزلية تعكس رؤية فلسفية واضحة . هو هنا يقيم مقارنة متصلة بين الحسن الكلى والحسن الجزئى بين وجه الحبيب الذى يمثل الكلى وبين معنى الحسن الذى يمثل الجزئى فها هو الجمال بعض هذا الوجه الجميل وها هو الشاعر يقارع واحد الحسن بواحد الحزن يعنى نفسه ويقدم للحبيب سقامه برهانا على حبه . هذا الحب الذى لم يكن موجودا قبل حصول هذا المحبوب فى أفئدة العاشقين فكأنه ينفى أن ثمة حبا سابقا على حب هذا المحبوب الزائد الحسن . أما الغزلية الاخيرة فهى نصيحة رقيقة من عاشق يرى الظلم قد حاق به دون ذنب جناه . يتوسل الشاعر بالمنطق والحجج والعقلية مرة أخرى فى محاولة لاقناع المحبوب بالعدول عن صده ويدعو الى الرحمة به فليس من العدل أن يكون قلب المحبوب خاليا ساليا وقلبه ثابتا على المودة ولماذا وهو لم يذنب ولم يسىء أى جرم أتى به الشاعر حتى يلقى كل هذه الاساءة والصدود وكأنه فى الختام يحذر المحبوب من أن الحب فى هذا الزمان عابر لا دوام له فهو تحذير يتضمن دعوة للاستمتاع بمباهج هذا الحب ونعيمه .
ان أبا تمام يظل فى كل شعره محتفظا بخصائصه التى تميز بها وصار بها اماما بين شعراء عصره وأعطانا صوتا جديدا فريدا فى الشعر العربى كله .

لاميـــة العجـم

للشـــاعر الطغرائـــي

القصيدة

اصالة الراى صانتنى عن الخطل — وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

مجدى أخيرا ومجدى اولا شرع والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل

فيـم الاقامة بالزوراء لا سـكنى — بها ولا ناقتى فيها ولا جمـلى

ناء عن الاهـل صفر الكف منفرد — كالسيف عرى متناه من الخلـل

فلا صـديق اليه مشـتكى حزنى — ولا انيس اليـه منتهى جذلـى

طـال اغترابى حتى حن راحلتى — ورحلهـا وقرى العسـالة الذبل

وضج من لغب نضوى وعج لمـا — يلقى ركابى ولج الركب فى عذلـى

أريد بسطة كف استعين بهـا — على قضاء حقوق للعلى قبـلى

والدهـر يعكس امالى ويقنعنـى — من الغنيمة بعد الكد بالقفـل

وذى شطاط كصدر الرمح معتقل — بمثله غير هياب ولا وكـل

حلو الفكاهة مر الجـد قد مزجت — بقسوة اليأس فيه رقة بالمقـل

طردت سرح الكرى ورد مقلتـه — والليل اغرى سوام الليل بالمقل

والركب ميل على الاكوار من طرب — صاح وآخر من خمر الكرى ثمـل

فقلت ادعـوك للجلى لتنصرنى — وانت تخذلنى فى الحادث الجلـل

تنام عينى وعين النجم سـاهرة — وتستحيل وصبغ الليل لم يحـل

تعبـين على غى هممـت به — والغى يزجر احيانا عن الفشـل

انى اريد طروق الحى من اضـم — وقد رماه رماة الحى من ثقـل

يحمون بالبيض والسمر اللذان بهم — سود الغدائر حمر الحلى والحلل

فسر بنـا فى ذمام الليـل مهتديا — بنفحة الطيب يهدينا الى — الحلل

فالحب حيث العدى والاسدرابضة — نصالها بميـاه الغنج والكحـل

قد زاد طيب احاديث الكرام بهـا — ما بالكرائم من جبن ومن بخـل

تبيت نار الهوى منهن فى كبـد — حرى ونار القرى منهم على القلل

يقتلن انضاء حب لاحراك بهـا — وينحرون كرام الخيل والابـل

يشفى لديغ الغوانى فى بيوتهـم — بنهلة من لذيذ الخمر والعسـل

لعل المـامة بالجزع ثانيـة — يدب فيها نسيم البرء فى علـل

لا اكره الطعنة النجلاء قد شفعت — برشقة من نبال الاعين النجـل

ولا أهاب صفاح البيض تسعدنى — باللمح من صفحات البيض فى الكلل

ولا اخـل بغزلان اغازلهـا — ولو دهتنى أسود الغيل بالغيـل

حب السلامة يثنى هم صـاحبه — عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

فان جنحت اليه فاتخذ نفقـا — فى الارض او سلما فى الجو فأعتزل

ودع غمار العلى للمقدمين عـلى — ركوبها واقتنع منهن بالبلـل

يرضى الذليل بخفض العيش يخفضه ... والعز عند رسيم الانيق الذلل
فادرأ بها فى نحور البيد جافلة ... معارضات مثانى اللجم بالجدل
ان العلى حدثتنى وهى صادقة ... فى ما تحدث أن العز فى النقل
لو ان فى شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوما داره الحمل
أهبت بالحظ لو ناديت مستمعا ... والحظ عنى بالجهال فى شغل
لعله ان بدا فضلى ونقصهم ... لعينه نام عنهم أو تنبه لى
اعلل النفس بالامال أرقبها ... ما اضيق العيش لولا فسحة الامل
لم ارتض العيش والايام مقبلة ... فكيف ارضى وقد ولت على عجل
غالى بنفس عرفانى بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
وعادة النصل أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل الا فى يدى بطل
ما كانت أوثر ان يمتد بى زمنى ... حتى ارى دولة الاوغاد والسفل
تقدمتنى اناس كان شوطهم ... وراء خطوى اذ امشى على مهل
هذا جزاء امرىء اقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الاجل
وان علانى من دونى فلا عجب ... لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر عليها غير محتال ولا ضجر ... فى حادث الدهر مايغنى عن الحيل
اعدى عدوك من وثقت به ... فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجل
وحسن ظنك بالايام معجزة ... فظن شرا وكن منها على وجل
غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت ... مسافة الخلف بين القول والعمل
وشان صدقك عند الناس كذبهم ... وهل يطابق معوج بمعتدل
ان كان ينجع شىء فى ثباتهم ... على العهود فسبق السيف للعذل
يا وارد اسؤر عيش كله كدر ... انفقت عمرك فى ايامك الاول
فيم اعتراضك لج البحر تركبه ... وانت تكفيك منه مصة الوشل
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا ... يحتاج فيه الى الانصار والخول
ترجو البقاء بدار لاثبات لها ... فهل سمعت بظل غير منتقل
ويا خبيرا على الاسرار مطلعا ... اصمت ففى الصمت منجاة من الزلل
قد رشحوك لامر ان فطنت له ... فاربا بنفسك أن ترعى مع الهمل.

شاعر هذه القصيدة هو ابو اسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على ابن عبد الصمد الذى اشتهر بلقب « الطغرائى » هو صاحب الطغراء وهى الطرة التى تكتب فى اعلى الرسائل فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعت الملك الذى صدر عنه الكتاب . وكان للطغراء ديوان خاص بها فى دولة السلاجقة التى حكمت بغداد وبلاد العجم فى الفترة من عام ٤٤٧هـ حتى عام ٥٢٥هـ ويضم هذا الديوان : الرسائل والانشاء .

ولد الشاعر عام ٤٥٣هـ فى جى من اصبهان فى اسرة من ولد ابى الاسود الدولى .

ولم يدخر جهدا فى تثقيف نفسه ثقافة واسعة جعلته عارفا بأحداث عصره متقنا لادوات فنه . الكتابة والشعر . كان طموحا الى المناصب

العالية يرى نفسه اهلا لاعلى المناصب في دولة السلاجقة فانخرط فى سلك الكتاب يسعى الى اقامة أوثق العلاقات مع الرؤساء والوزراء وبعد ان تقلب بين السراء والضراء اصبح نائبا لديوان الطغراء ولم يلبث أن أصبح رئيسا لهذا الديوان نفسه . ولكنه كان يرى فى هذا الديوان مجرد مرحلة على الطريق الى الوزارة وقد بدأ يعمل لهذا الهدف مثابرا لا يكل وقد لاحظ المحيطون به من كبار موظفى دولة السلاجقة هذا الطموح الغلاب الذى يشتعل فى صدره كما كانوا خير من يعرف مواهب الطغرائي فى الشعر والنثر مما يجعل هدفه قريبا منه . وكان أن حاصرته الكراهية والحسد والكيد وها هى الدسائس تسد عليه طرقه متخذة من الكذب والافتراء وسيلة للقضاء على هذا الشاعر الطموح . وقد انتصرت الاحقاد فعزل عن ديوانه فى الوقت الذى كان يخطط فيه للوصول الى الوزارة ولا شك أن الاحباط قد أصاب نفسه المرهفة بجرح غائر فى سويداء قلبه مما دفعه الى الرحيل والهجرة الى اصفهان ولعله أمضى فترة معتزلا ومنصرفا الى الكيمياء والتأليف كما يقول محققا ديوانه الدكتور على جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبورى . ولكن الشاعر يعود من جديد الى ديوان الطغراء فى اصفهان عام ٥٠٩ هـ ولكن لعنة حساده تطارده فيكيد له أحد هؤلاء الحاقدين فيتهم بالسحر ويعزى الى سحره مرض السلطان محمد ولم تلبث الاوساط القريبة من بيت الحكم أن صدقت الشائعات عن سحره فعزل مرة أخرى ولكنه عاد مرة ثالثة الى الديوان بعد وفاة السلطان محمد وتولى ابنه محمود السلطنة من بعده ولكن اللعنة تطارده حتى تضطره مرة ثالثة الى الاعتزال وملازمة بيته . ولم يهدأ باله لهذه العزلة رغم أنه كان فى التاسعة والخمسين من عمره ولكن شهوة الطموح والوصول الى كرسى الوزارة كانت ما تزال متأججة فى صدره . فرحل الى الموصل حيث الملك مسعود بن السلطان محمد الذى استوزره . وكان صغيرا فى الحادية عشرة من عمره يدير له أمر مملكته قائد جيشه . ولم يلبث هذا القائد أن فكر فى انتزاع السلطنة من السلطان محمود وضمها الى سلطنة مسعود حتى تكون تحت يده وتبدأ المواجهة بين جيوش السلطان محمود واخيه السلطان مسعود ويكتب النصر للأول ويأسر الشاعر بعد هزيمة حامية ويواجه أعداءه مرة أخرى . أعداءه الذى حاصروه واقعدوه وها هم الان يمسكون به كالطائر الجريح لا يملك من أمر نفسه شيئا ويتهم الشاعر بالالحاد وهى فرية كانت مجرد ذريعة للقضاء عليه وقتل الشاعر ظلما فى ربيع الاول من عام ٥١٥ هـ . ولم يمكث الشاعر فى المنصب الخطير الذى افنى حياته طلبا له أكثر من عام وشهر واحد وهكذا فتك به طموحه الغلاب فى زمن كانت الدسائس والمؤامرات هى نظام العصر وطبيعته . ولا شك أن مأساوية العصر الذى عاش فيه الشاعر هى التى طبعت فى نفسه هذه الصورة القاتمة للناس من حوله وجعلته سيء الظن بهم . فالحلقة المفرغة من الولاية والعزل والاقامة والرحيل والوصول الى الهدف والبعد عنه قد ألقت به فى جحيم حقيقى من الشك والريبة والخوف وكان الشعر هو حليفه الدائم الذى صب فى قواريره الزاهية عصارة تجاربه القاسية ومرارة أيامه التى كانت تزداد قتامة ويبدو أن تجدد

الامل فى حيـــاته هو الذى جعله يحرص على المثـــابرة وتجـــاوز اليأس فى نفسه . فقد كانت حظوظ حياته المتقلبة مراوغة فلا هى تدعه فى النجاح الذى شقى فى الحصول عليه ولا تلقى به فى هو فشل نهائى يدفع به الى يأس مريح .

والقصيدة التى نحن بصددها لامية العجم واحدة من عيون الشعر العربى فى كل عصوره وبها اشتهر الشاعر فى مختارات الشعر العربى ولدى الشراح والباحثين والنقاد والبلاغيين . ولعـــل هذه القصـــيدة أن تكون أكمل نموذج لحياته وشعره ففيها كل عناصر المأساة التى حكمتحياة الشاعر رغم أنه قالها فى بغداد عقب عزله الاول عام ٥٠٥ هـ ولكنها توشك أن تكون نبوءة كاملة بمستقبل ايامه كما كانت صورة تقترب من الـــكمال لماضـــيه الذى قضـــاه فى صـــحبة هواجســـه ومخاوفه وشكوكه وحزنه ويأسه وامله .

والقصيدة من الناحية الفنية توحى باتجاه الشعر العربى فى هذا القرن السادس الهجرى الى الدخول فى شحوب الافول على أبواب عصور الانحطاط الطويلة التى سادت الادب العربى بعد سقوط الخلافة الاسلامية فى أيدى الاجناس الاعجمية . هذه العصـــور التى تتميـــز بالاحتفـــال الشديد بالمحســـنات البديعية من جنـــاس وطباق ورد العجز على الصدر ولعب بالالفاظ الى آخر هذه الانواع التى عكف البلاغيون المتأثرون بعلم المنطق على صياغة قواعدها واقبل عليها الشعراء السطحيون تعويضـــا عما افتقدوه من مواقف كبرى فى مواجهة الحياة التى كانت تتردى بهم الى حيث لا يعلمون ولا يقدرون على مقاومته . كان عصر المتنبى وأبى العلاء وأبى فراس قد انقضى وبدأت عصور الضعف ولكن ذلك لا يعنى أن القصيدة تعانى من هـــذه الامراض الفنيـــة . ولـــكن القصيدة قد كتبت فى لغة تمت الى عصر العمالقة من الشـــعراء بأوثق الاسباب فهى جزلة . متينة الصياغة حافلة بالصور القوية الاخاذة تقترب من القصـــيدة الجاهليـــة فى وصفها للراحلة وتندمج فى القصيدة العباسية وهى تتحـــدث عن الخمريات ولكنها تؤكد بكل وضوح انها بنت عصرها الذى كتبت فيه وأنها جسدت مأساويته وارتفعت فى أسلوبها الى التعبير الشـــامل الذى يبدأ من التجربة الجزئية الخاصة ويصل الى العام . وتلمع خلالها ابيات قد تختلف معها من الناحية الفكرية حين نفهم الصلة بين الانسان والعالم على أساس من الشك والخوف والريبة فى اطار من العزم واليأس ولكن الشاعر فى النهاية ليس مفكرا انه شاعر يستخدم أدوات باللغةالحساسية لينفذ الى صميم وجداننا .

اشتهرت لامية العجم كواحدة من أفضل قصائد الشـــعر العربى واشتهر بها الطغرائى فهل هى قصيدة فى الحكمة كما يوحى نصفها الاخير ؟

أم هى قصيدة فى الشكوى كما توحى معظم ابياتها ؟ أم هى قصـيدة متعددة الاغراض وان كانت تعبر فى حذق ومهارة وصدق نادر عن أزمة حـادة يعيشها الشاعر . هى أزمة حياته كلها بل الصحيح أنها أزمة العصر الذى عاش فيه الحكم السلجوقى الذى انهى دولة بنى بويه وأقام اساس ملكه على شريعة النظم المأساوية التى اقامها الغدر والمكيدة والطمع وشهوة التسلط والسلطان. أن أعظم اسباب نجاح هذه القصيدة وذيوعها هى انها صادقة كل الصدق فى خلق صورة حية نابضة لادق مشاعر قائلها . طموحه ومعاناته وفشله . كما أنها كذلك صورة حية رنانة من الحكمة التى تذكرنا بمجد أبى الطيب المتنبى وسوداوية أبى العلاء المعرى وانما هى عمل من الاعمال النادرة التى يقيض لها أن تكون شاهدا يطفح بالمرارة على قسوة العصر الذى قيلت فيه وذاتية الشاعر واضحة منذ الافتتاحية المباشرة التى توشك أن تزج بالقصيدة فى غرض تقليدى من أغراض الشعر وهو الفخر حين يقول :

اصالة الراى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى عن العطل
مجدى اخيرا ومجدى أولا شرع والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل

المباشرة التى تسود التعبير لا تنفرنا ولا تبعدنا عن التعاطف مع القصيدة لانها صيغت فى بناء متماسك يذكرنا بافتتاحيات المتنبى الجهيرة وصوره الشعرية القوية .

ويبدو ان الشاعر الذى عانى القسوة والكراهية والحسد من جانب المحيطين به قد شعر بضعفه واحباط مساعيه ولانه شاعر طموح قوى النفس بعيد الهمة لا يستسلم ولا ييأس فقد آثر أن يرفع فى وجه فشله بسيف الفخر والثقة فى النفس . ولكن هذا الصوت المتفاخر الشامخ لا يلبث أن يهوى فجأة الى هاوية الاحساس بالغربة والوحشة والفقد وأن كان فى تشبيه نفسه بالسيف الذى يخلو من العيب وكأنما يشير الى أن حاله التى هو عليها بما فيها من شقاء لا تعزى لعيب فيه وانما لخلل فى زمانه . لقد رسم فى بداية القصيدة صورة درامية لازمة نفس عالية الهمة . نفس بطل لا يقبل الهزيمة ولا الفشل ، فهو رجل ماجد ولكن الازمة تمسك بخناقه فهو غريب فقير وحيد كل شىء فى حياته يعانى من غياب ما يكفيه ويسعده بينما هو رجل همه فى طلب المعالى ان هدفه واضح .

اريد بسطة كف استعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلى

هو يريد ان يقوم بالتزاماته تجاه المجد فعليه واجبات أساسية للعلا لابد من القيام بها ولكن الدهر يعاند ويعكس له الآمال ويضطره

الى التراجع وللرضى من الغنيمة بالاياب . ان شخصية الشاعر تتبدى قوية حازمة مصرة على تحقيق هدفها في الحياة ورغم قوة مايعانيه الا انه عازم على المضى وعدم الاستكانة الى حيث ترغمه الاقدار التى يسميها الدهر . فها هو يأخذ بزمام راحلته جسورا مقداما الى حيث يهوى وماذا يفعل وقد كتب عليه أن يكون حبه في موضع به أعداؤه ويا له من اختيار صعب أن يكون الحب في مكان واحد مع البغض أو تكون العداوة حارسة للحب ها هو يخاطب جواده :

فسر بنا فى ذمام الليل مهتديا بنفحة الطيب تهدينا الى الحلل
فالحب حيث العدي والاسد رابضة نصالها بمياه الغنج والكحل

والحقيقة ان الشاعر قد ادخل حديث الحب فجاة وهو يسرع براحلته الى طلب المعالى كحيلة شعرية للتخفيف من صرامة الاسترسال في حديث الجد وقعقعة السلاح فرأى أن يروح عن متلقى شعره بهذه الفاكهة الحلوة التى تطيب بها النفوس والتى كان الشعراء القدامى يصدرون بها قصائدهم طلبا لاقبال الاذان على شعرهم ولا شك أن هذا الاحساس يؤكد رهافة مشاعر الطغرائى وبراعته فى صياغة عمله الفنى. ولكن ذلك الجزء من القصيدة لا يعد مجرد فاصل رقيق من المشاعر الناعمة للتخفيف من احتدام الازمة القاسية التى تحاصره وانما هى جزء رمزى يشير الى أن هدف الشاعر وأمانيه وأحلامه تتبدى له غراما تولع به النفس وعشقا تسعد به القلوب وتبذل من أجله التضحيات ويسهل من أجله الصعب . واذا كان الشاعر قد كرس الجزء الاول من القصيدة لكشف مأساته ومعاناته كبطل تراجيدى يدخل في صراع مرير مع الواقع من أجل تحقيق أحلامه فقد كرس الجزء الاخير لما يمكن أن نطلق عليه شعر الحكمة . ويا لها من حكمة بالغة القسوة تلك التى تمخضت عنها تجاربه الاليمة . لقد حاول الشاعر أن يضع نتائج تجاربه فى قاعدة شعرية عامة تقف على حدود الفلسفة وعلى أبواب الشعر متخذة من التعميم صورتها النهائية . وهذه الابيات تبدأ بالبيت الذى يقول :

حب السلامة يثنى هم صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

هذه الابيات تحتفل بها كتب الادب كجزء عزيز من أدب الحكمة . ولا شك أن هذا البيت يقف كموعظة بليغة صادقة فى التعبير عن موقف من الحياة يحكم عليها بالسلبية والموت . فلا شك أن ايثار السلامة هو الذى يقود الى الجمود والسلبية فى الحياة وقد يكون سببا قويا فى حرماننا من الحياة نفسها . ثم يحدد الشاعر طريق الكرامة والمجد

فى الرحلة والترحال والحركة الدائمة وهكذا كانت حياته وهو يعلى بصورة قوية من دوافع الامل فى الحياة . فهذا الامل هو خيط الفجر الذى يؤذن بانتهاء الليل

اعــلل النفس بالآمـــــال ارقبهـــــاما اضــيق العيش لولا نسمة الامل

ان ابيات هذا الجزء من القصيدة تمزج الشكوى بالحكمة بالفخـر بالموعظة فى اطار من ادانة العصر متهما الحظ . هذه الصيغة الغامضة للاقدار والظروف المحيطة بانه هو الذى يتنكر له ويمشى فى ركاب من هم اقل منه فى كل شيء .

تقــدمتنى انــاس كــان شــوطهموراء خطـــوي اذ امشى على مهـل

ولاول مرة فى القصيدة يلوم الشاعر نفسه وان كان هذا اللوم يأتى فى صــــيغة عامة تصلح لكل امرىء يعـــاتب نفسه فى لحظـــة الفشـــــل :

هـــذا جــزاء امرىء اقرانه درجــوامن قبلــه فتمنى فســـحة الاجــل

والشاعر يلجأ الى نوع من الاقيسة المنطقية الهشـــة التى ندرك من اول وهلة تهافتها ولكنها مجرد عزاء غير مؤكد لهم نفس أصابها الفشل. واذا كانت تجــربة الشـــاعر قد حركت روحه الى ينابيع الحــكمة فى بعض الابيات فارتوت منها وحاولت ان تقربنا من منهلها العذب فان تجربة الشـــاعر ايضا قــد دفعت نفســه المفعمة بالمرارة الى نوع من القسوة التى تفتقد الى الانصاف فى الحكم على الحياة والاحياء . واذا كان الشاعر قد حاول ان يخلص من ذاته الى اطار عام من القواعد العامة والحــكم الجليلة فان ذاته قد عادت لتسيطر بسوداوية قاتمة على صــورة العالم المحيط به . هذا العالم الذى رأى فيه الشــاعر عــدوا ماكرا لئيما دائم الغدر والكذب ورأى فى الناس صورة من الشر والقسوة والبغض فانتفى فى هذا العالم وفى هؤلاء الناس الوفاء والحب والتكافل والثقة حتى لنجد الشاعر يدلى بأحكامه اليائسة فى وجه الجميع فيتهم الاقربين ويشك فى الجميع ولا يجد سندا له الا فى قوته الذاتية وحدها .

ها هــو يجانب الانصـــاف والموضوعية ويستسلم للغضب وعــدم الثقـــة فيقول :

عــدى عـــــدوك من وثقت بـــــه فحاذر النــاس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدهــــا من لا يعول فى الدنيـــا على رجـــل

وتدخل القصيدة من هذا المنعطف الى اليأس فقد اسودت الدنيا فى وجهه وها هو يرى أن حسن الظن بالناس نوع من العجز ويعلن غياب

الوفاء وتفشى الغدر ومخالفة القول للعمل . وكان لابد أن يقوده عـــدم الموضوعية والغضب والسخط والتبرم الى أن يشعر باليأس يطـــوق خطواته . ذلك لانه بعد أن أحكم الحصـــار حـــول أعنـــاق النــــاس فكأنه فى الواقع قد أحكمها حول عنقه هو نفسه أولا . من هنا يواجه الشاعر حياته خائرا القوى يائسا . لا قبل له بما هو مقبل عليه . لقد ضاع الامل من الشاعر فثقل عليه كل شىء .

فيم اعتراضـــــك لج البحر تركبه وانت تكفيك منه مصـــــة الوشـــــل

بدأ الشاعر يحدث نفسه بالاقتنـــاع بالقليـــل بدلا من الطمع فى الكثير فالقناعـــة لا تحتاج الى الانصـــار الذين يخـــذلون ولا الى الاعوان الذين يغدرون وهـــا هو يصل الى قمـــة الدراما انها التخلى عن الحياة ذاتهـــــا :

ترجـــو البقـــاء بدار لا ثبـــات لها فهل سمعت بظل غير منتقـــل

ان القصيدة تتطور بطريقة درامية من موقف الازمة الى مـــوقف الهزيمة لتصور محنة شاعر التف حول ذاته وسيطر عليه طموحه ورأى فى هذا العالم كله أعداء له . انه بطل تراجيدى يواجه قدرا صنعه بنفسه ليسقط فى النهاية ضحية لــــه . واذا كانت القصيدة تحفل بقيم ايجابية كثيرة فى مقدمتها اعلاء شأن الامل فان موقف الشـــاعر الاساسى كان من أعظم ســـــلبياتها هذا الموقف هو رؤية العالم من زاوية خاصـــة جدا رؤية تقول اما أن يكون هذا العالم فى خدمتى أو فليذهب الى الجحيم ، ولا نســـتطيع بالطبع أن نصـــل الى حكم قاس على هذا الشاعر وحده الذى قتله طموحه لان هذا الحكم ينبغى أن يشـــمل العصر الذى عاش فيه وغرس فى نفسه هذه البذور المريرة التى تجلت فى هذه الحكمة القاسية التى حدثتنا عنها قصيدته .

ان شخصية الصـــفرائى مثـــل شـــخصية المتنبى . مأســـاوية فى جوهـــرها لانهـــا وجـــدت نفســـها محـــاصرة بين واقع لا تريـــده وآآمـــال لا تقـــدر عليهـــا ، ويا لـــه من مصير فاجع مشـــترك بين المتنبى والطغرائى .

ابـــو الهـــول

لامير الشعراء احمد شوقى

القصـــــيدة

أبا الهول : طـــال عليـــك العصر … وبلغت فى الارض أقصى العمـــر

أيالدة الدهر : لا الدهر شـــب ولا أنت جاوزت حـد الصـغر

الام ركوبـــك متـــن الرمـــا … ل لطى الاصيل وجوب الســحر

تســافر منتقـــلا فى القرون … ن فأيان تلقى غبـــار الســفر

أبينك عهـــد وبين الجبـــا … ل تزولان فى الموعـــد المنتظـــر

***

أبا الهـــول : ماذا وراء البقـــا … ء ـ اذا ما تطاول ـ غير الضجر

عجبت للقمـــان فى حرصـــه … على لبد والنســـور الاخـــر

وشـــكوى لبيد لطول الحيـــا … ة ولو لم تطـــل لتشـــكى القصر

ولو وجدت فيك يا ابن الصـــفا … ة لحقت بصانعك .. المقتـــدر

فان الحيـــاة تفـــل الحديـــ … ـــد اذا لبسته وتبـــلى الحجـــر

أبا الهول ما أنت فى المعضـــلا … ت لقد ضلت السبل فيك الفـــكر

تحـــيرت البـــدو ماذا تكـــون … ن وضـــلت بوادى الظنون الحضر

فكنت لهم صـــورة العنفـــوا … ن وكنت مثـــال الحجى والبصر

وســـرك فى حجبـــه كلمـــا … أطلت عليه الظنـــون استـــتر

وما راعهم غير رأس الرجـــا … ل على هيكل من ذوات الظفـــر

ولو صوروا من نواحى الطبـــا … ع توالوا عليك ســـباع الصـــور

فيارب وجه كصـــافى النمـــ … ـــير تشـــابه حـــامله والنمر

أبا الهـــول ويحك لا يستقـــ … ـــل مع الدهر شىء ولا يحتقـــر

تهزأت دهـــرا بديك الصـــباح … فنقـــر عينيـــك فيما نقـــر

أسال البياض وسل الســـواد … وأوغل منقـــاره فى الحفـــر

فعـــدت كأنك ذو المحبسين … قطيـــع القيـــام ســـليب البصر

كأن الرمـــال على جانبيـــك … وبـــين يديك ذنوب البشـــر

كأنك فيهـــا لواء القضـــاء … على الارض أوديدبان القـــدر

كأنك صـــاحب رمـــل يـــرى … خبايا الغيوب خلال الســـطر

***

أبا الهـــول أنت نديم الزمـــان … ن نجى الأوان ســـمير العصر

بســـطت ذراعيـــك من آدم … ووليت وجهك شـــطر الزمـــر

تطـل على عـالم يسـتهل ... ل وتوفى على عـالم يحتضر
فعـين الى من بدأ للوجـو ... د وأخرى مشـيعة من غبر
فحدث فقـد يهتدى بالحديث ... وخبر فقـد يؤتس بالخبر
الم تبـل فرعـون فى عـزه ... الى الشـمس معتزيا والقمر
ظليل الحضـارة فى الاولـين ... ن رفيع البنـاء جليل الأثـر

يؤسـس فى الأرض للغـابرين ويغـرس للآخرين الثمـر

وراعك ما راع من خيل قمبـيز وترمى سـنابكها بالشرر

جوارف بالنار تغـزو البـلاد ... د وآونـة بالقنـا المشتجر
وأبصرت اسـكندرا فى المـلا ... قشيب العلا فى الشباب النضر
تبتلـج فى مصـر اكليـله ... فلم يعد الملك عمـر الزهـر
وشاهدت قيصر كيف اسـتبد ... د وكيف اذل بمصـر القصـر
وكيـف تجبـر أعوانـه ... وساقوا الخلائق سوق الحمر
وكيف ابتلوا بقـايل العديـ ... ـد من الفاتحين كريم النفـر
رمى تاج قيصر رمـى الزجـا ... ج وفـل الجموع وشل السرر
فدع كـل طاغيـة للزمـا ... ن فان الزمان يقيـم الصـعر
رايـت الديانات فى نظمهـا ... وحين وهى سـلكها وانتـثر
تشـاد البيوت لهـا كالبروج ... ج اذا اخذ الطرف فيهـا انحسر
تلاقى أساسا وشـم الجبـا ... ل كما تتلاقى اصـول الشجر
وايزيس خـلف مقاصـيرها ... تخطى الملوك اليهـا الستر
تضىء على صـفحات السـماء ... وتشرق فى الارض منها الحجـر
وآبيـس فى نـيره العـالمو ... ن وبعض العقـائد نير عسـر
تساس به معضـلات الامـو ... ر ويرجى النعيم وتخشى سـقر
ولا يشـعر القوم الا بـه ... ولو أخذته المـدى ما شـعر
يقل أبو المسـك عبـدا له ... وان صـاغ احمد فيه الـدرر
وآنسـت موسى وتابوتـه ... ونور العصى والوصايا الغـرر
وعيسى يلـم رداء الحيـا ... ء ومريم تجمـع ذيـل الخفـر
وعمرو يسـوق بمصر الصحا ... ب ويزجى الكتاب ويحدو السـرر
فكيف رأيت الهـدى والضـلا ... ل ودنيا الملوك وأخرى عمـر
ونبـذ المقوقس عهد الفجـو ... ر وأخذ المقوقس عهد الفجـر
وتبديـله ظلمـات الضـلا ... ل بصبح الهداية لمـا سـفر
وتأليفـه القبـط والمسـلمين ... ن كمـا الفت بالولاء الاسـر
أبا الهول لو لـم تكن آيـة ... لكان وفاؤك احـدى العبـر
اطلت على الهرمين الوقـو ... ف . كثاكـلة لا تريم الحفـر
ترجـى لبانيهمـا عـودة ... وكيف يعـود الرميم النخـر
تجوس بعـين خـلال الديا ... ر وترمى بأخرى فضـاء النهـر
تـروم بمنفيس بيض الظبـا ... وسمر القنا والخميس الدثـر
ومهد العلوم الخطـير الجلال ... وعهد الفنون الجليل الخطـر
فلا تسـتبين سـوى قرية ... أجد محاسـنها ما اندثـر
تكاد لاغراقهـا فى الجمـو ... د اذا الارض دارت بهـا لم تـدر
فهل من يبلغ عنـا الاصـو ... ل بأن الفروع اقتدت بالسـير
وانا خطبنـا حسـان العلا ... وسـقنا لها الغـالى المدخر

وانا ركبنـــا غمـــار الامـــور ... ر وانا نزلنـــا الى المؤتمـــر
بكل مبين شـــديد اللـــدا ... د وكل اريب بعيـــد النظـــر
تطـــالب بالحـــق فى أمـــة ... جرى دمهـــا دونـــه وانتشر
ولم تفتخـــر بأســـا طيلهـــا ... ولكن بدســـتورها تفتخـــر
فلم يبق غـــيرك من لم يخـــف ... ولم يبق غـــيرك من لم يطـــر
تحرك ابا الهـــول هذا الزمـــا ... ن تحرك ما فيه حتى الحجـــر

وعلى لسان ابى الهول جاءت هذه الابيات :

نجـــى أبى الهـــول آن الاوان ... ن ودان الزمـــان ولان القـــدر
خبـــات لتومـــك ما يســـتقرو ... ن ولا يخبأ العذب مثل الحجـــر
فعندى المـــلوك باعيانهـــا ... وعندى التوابيت منهـــا الأثـــر
محا ظلمة اليأس صـــبح الرجـــا ... ء وهذا هـــو الفلق المنتظـــر

شاعر هذه الخريدة هو أمير الشعراء احمد شوقى الذى شـــغل الناس فى هذا العصر الحديث كما شـــغلهم ابو الطيب المتنبى فى القرن الرابع الهجرى والقرون التالية له . ذلك لان كلا الشاعرين قد بهر الناس بهذا الشعر الرفيع الذى جعل من اللغة مادة سحرية تنفذ الى الوجدان الراكد فتحركه وتدفعه الى السمو باحلامه الى عنان السماء . ومهما يكن من أمر المقارنة بين المتنبى وشوقى وتقديم كل منهما على الآخر فان الامر الذى لا يمارىفيه احد ان شوقى والمتنبى عملاقان شاهقان اوتى كل منهما موهبة كبيرة على صياغة رؤاه بأقصى مهارة تقدر عليها اللغة وتستجيبلها واذا كان حظ المتنبى قد قضى له الحرمان والشقاء والاحباط فكأن الاقدار قد أرادت التكفير عن ظلمها للمتنبى او ظلم المتنبى لنفســـه فمنحت شوقى الرفعة والرخاء والقرب من الملوك مشمولا بالرضى ولعل هذا أن يقضى قضاء حاسما على فـــكرة شاعت طويلا بين بعض الادباء باقامة عـــلاقة متعسفة بين الحرمان والابداع الرفيع . فها هو شوقى يبدع بلا حرمان وها هو المتنبى يبدعوسط حرمانه ان المعول دائما انما هو علىالموهبة والارادة الصادقة التى تقف وراء هذه الموهبة .

ولد أحمد شوقى فى ١٦ اكتوبر عام ١٨٧٠ لاسرة اختلطت فيهـــا الدماء المصرية التركية اليونانية وكان رب هذه الاسرة يعمل فى معيـــة الخديوى والتحق بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٥ وبقى بها حتى عام ١٨٨٩ وفى عام ١٨٩٠ عينه الخديوى توفيق فى قلم الســـكرتارية الخـــديوية بقسم الترجمـــة حتى عام ١٨٩٣ حيث ســـافر فى بعثـــة على نفقـــة الخـــديوى توفيق الى فرنســـا ليكمل دراسته فى الحقوق قضاها بين مونبليه وباريس وزار خلالها انجلترا والجزائر وكثيرا من قرى ومـــدن الجنوب الفرنسى وفى عام ١٨٩٦ أوفدته الحكومة المصرية ممثلا لهـــا فى

مؤتمر المستشرقين فى جنيف حيث القى قصيدته الطويلة « كبار الحوادث فى وادى النيل » ثم سافر من هناك فى رحلة الى بلجيكا وقد نشر الجزء الاول من ديوانه الشوقيات عـام ١٩٠٠ نفى الى اسـبانيا فى الفتـرة من ١٩١٥ حتى ١٩١٩ وفى عـام ١٩٢٤ عين عضوا بمجلس الشـيوخ بايعته وفود الدول العربية فى ٢٩ ابريـل عـام ١٩٢٧ امير للشـعراء وكان الاحتفـال بتنصـيبه اميرا للشـعراء قـد اقيـم فى دار الاوبرا بالقـاهرة ولقى ربـه فى الرابع عشر من اكتـوبر عام ١٩٣٢ عن اثنتين وستين سنة .

تعتبر الشوقيات هى العمل الشعرى الرئيسى لاحمد شوقى وهى ديوان من اربعة اجزاء يتناول الجزء الاول رؤيتـه السياسية والتاريخية والاجتماعية وفى هذا الجزء الهام يتضح اهتمام شوقى الكبير بأحـداث عصره أما الجزء الثانى فيضم قصائده فى الوصف والنسـيب وبعض الاغراض الاخرى ويكاد الجزء الثالث أن يكون مكرسا كله لشعر الرثاء وقد طبع الجزء الرابع بعد وفاته ويشـتمل على قصـائد فى السياسة والتاريخ وبعض القصائد التى اطلق عليها جامعها اسم الخصـوصيات وكذلك بعض الحكايات الشعرية تدور على لسان الحيوانات « شبيهة بقصص « كليلة ودمنة » وقصص لافونتين فى اللغـة الفرنسـية . وقد صدر عام ١٩٦١ و ١٩٦٢ عن الهيئة العـامة للـكتاب ما عرف باسم الشوقيات المجهولة فى جزأين جمعها وعلق عليها الدكتور محمد صبرى السربونى .

كان شوقى رائدا فى مجال المسرح الشعرى فهو الذى أسس لهذا الفن مدرسة هامة فى الشعر العربى المعاصر . وقد كتب شوقى عـددا من المسرحيات الشعرية هى : على بك الكبير ومصرع كليوباتره ومجنون ليلى وقمبير وعنترة وأميرة الاندلس . والست هدى وهى ملهاة واقعية .

يقول أحمد شوقى فى مقدمة الشوقيات :

« انى قرعت أبواب الشعر وأنا لا اعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أحد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للاحيـاء يحذون فيها حذو القدماء ثم يتحدث عن وظيفة الشعر فيقول :

على أن الشعر ليس من حاجات العمران المادى الذى تتوقف عليه سعادة الانسان فى هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الادبى الذى تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة والمادة المجردة وتميل فى بعض أوقاتها الى التنقل بشعورها من عالم الى آخر ومن فضاء الى سـواه ولعل هذه هى الحكمة فى كون الشعراء قليلا عديدهم فى كل زمان ومكان لا تعطى الامم منهم الا بقدر حاجتها اليهم » .

وقد تعرض شوقى لكثير من النقد وهذا النقد نفسه كان يقدر قيمة شوقى كشاعر بلغ بالاطار التقليدى القمة فى الصياغة والاداء واسفرت الحملات النقدية بالطبع عن تطور حتمى فى مسيرة الشعر وكانت مدرسة الديوان العقاد والمازنى من أشد النقاد الذين تعرضوا لشوقى بالنقد الذي تطرف الى التجريح فى بعض الاحيان . واذا كان هذا النقد قد صحح بعض المعايير الفنية لدى الاجيال الطالعة فانه فى نفس الوقت لم يهدم هذا الصرح الفنى العظيم الذى شاده شوقى بعبقريته النادرة واذا كان شوقى يتعرض للنقد فما ذلك الا لافساح الطريق أمام ابداع معاصر يلائم روح العصر حتى يتمكن الشعر من التخلص من التقليد الاعمى والمسايرة الفنية التى درج عليها انصاف الموهوبين .

قصيدة ابى الهول التى نحن بصددها واحدة من روائع أمير الشعراء التى اكتملت فيها عناصر شاعرية هذا الشاعر العظيم ففيها تتجلى هذه الرؤيا التاريخية الشاسعة الاطراف اتساعا وعمقا مما يدل على ثقافة الشاعر من ناحية وارتباطه الوجدانى بهجوم وطنه من ناحية أخرى . وفيها هذا الجنوح الى تأمل رحلة الزمان تأملا ذا مستويين المستوى الاول هو المظهر الخارجى التاريخى وذلك من خلال سرد الاحداث وتتبع ظهور الممالك واختفائها والمستوى الثانى هو المستوى الميتافيزيقى وهو الذى يعلو على الحدث المباشر لحركة الحياة من الميلاد الى الموت ومن القوة الى الضعف . كل هذا من خلال هذا التمثال الباهر الذى يقوم شاخصا الى الصحراء وكأنه يشهد شهادة صامتة ساخرة على ما يحدث وما يجرى . ما يقوم وما يسقط .

الشاعر يبدأ بالاستفهام الذى ينبىء عن الدهشة والاعجاب والحيرة وكأن الشاعر بهذا يسلكه فى الاحياء وكيف لا وهو يحمل وجه انسان وجسد أسد أنه يشير بتكوينه الى أعظم ما فى الحياة — العقل وذلك بالمظهر الانسانى الذى يتمثل فى وجهه والقوة التى تتمثل فى جسده وكأن أبا الهول بمظهره المجيد الخالد يؤكد أن الطريق الى المجد والخلود انما يكون عن طريق واحد هو مزج القوة بالحكمة وهل قالت الفلسفة والشعر والعلوم والفنون والحضارة أكثر من هذا ؟ وكما قال الشاعر الانجليزى شيلى انما ينقص الاقوياء الحكمة وينقص الحكماء القوة — شوقى يسلك أبا الهول فى عداد الاحياء ولكنه يتساءل عن طول الرحلة فى قلب الزمان وهذا المفتتح ليس اكثر من دهشة ومدخل الى التأمل العظيم فيما وراء هذا البقاء فى الزمان .

أبا الهول ماذا وراء البقاء اذا ما تطاول غبر الضجر

ويدخل الشاعر من دهشة البقاء فى الزمان الى دهشة التناقص الانسانى — فها هو لقمان الحكيم يحرص على طول عمره الذى ارتبط

بأعمار سبعة نسور يهلك بعد هلاك آخرها وكان آخرها هو لبد الذى كان لقمان اشد حرصا عليه من النسور الاخرى وعلى الجانب الاخر من هذا الحرص نرى لبيد بن ربيعة يشكو طول عمره حيث يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولكن شوقى الذى بدأ بالايهام بأن الهول حى وذلك بالحديث معه عن الضجر يسفر عن وجه الحقيقة يؤكد لابى الهول أن خلوه من الحياة هو الذى منحه البقاء . لان الحياة تفل الحديد وتبلى الحجر . اذا لبسته . وها هو يؤكد المعنى الذى ترمز له هيئة أبى الهول .

ورغم أنه يصور حيرة الناس من بدو وحضر فى تفسير لغز هذا الماثل المهيب فى الصحراء الا انه يعبر فى الواقع عن حيرته هو نفسه انه يتساءل عن الاسرار المحجبة وها هو يعود الى التأمل بعد التساؤل فى الوضع الانسانى كما حدث بالضبط فى مقدمة القصيدة . بدأ بالتساؤل ثم ثنى بالتأمل وها هو يرد على دهشة الناس وحيرتهم بالدخول الى اعماق البشر . لماذا ينكرون هذه الهيئة الحيوانية الانسانية اليسوا هم أيضا كذلك : لو أن أجسادهم اخذت شكل صفاتهم لجاءت صورهم هكذا فى صورة الانسان الحيوان فلماذا يندهشون . الا يحسون بالحيوانية بداخلهم فكأنه يوحى بأن ابا الهول ليس الا تفسيرا تشريحيا لمفهوم الانسان تفسير تشريحى يتضمن اجابة اخلاقية عن الوضع الانسانى فى نفس الوقت :

فيا رب وجه كصافى النمير تشابه حامله والنمر

لاعجب اذن ان تجىء يا ابا الهول على هذا النحو الغريب . فأنت لست الا انسانا ظهر على جسده ما كمن فى باطنه من صفات .

وها هو الشاعر احمد شوقى يلتمس فى خياله الشعرى مسددا على تفسير هذه الخريشات الواضحة فى وجه أبى الهول مستدعيا فى ذهنه أبا العلاء المعرى وعراف الرمال وما شاعت له ظنونه أن تستدعى لمعرفة لغز هذه الحقيقة الكامنة فى هذا الصخر ثم يحاول بعد أن أعطاه صفة العراف أو المؤرخ أو الشاهد على كل العصور ان ينطق بما يرى وبما رأى وأن يفرض بالطبع رؤيته التاريخية مستخلصا من هذه الرؤية العظة الكبرى وهى فى الواقع هدف القصيدة فقد كان شوقى شاعرا وطنيا اخلاقيا كبيرا وتبدأ المسيرة الشعرية التاريخية بفرعون عزيزا فى ملكه ينتسب الى الشمس والقمر وها هو قمبيز والاسكندر وجنودهما ثم يأتى من بعد ذلك قيصر روما عجل ابيس — ايزيس . وتمضى مسيرة الغزاة بمصر الى ان يتوقف الشاعر وقفته الكبرى عند الفتح الاسلامى لمصر .

هنا يرى شوقى فى الاسلام نهاية لظلام الفجور وصبحا للهداية يطلع تحت رايات عمرو بن العاص . ولا ينسى الشاعر بعد هذه الوقفة مع الفتح الاسلامى لا ينسى دليله التاريخى أبا الهول فيناشده من جديد :

اطلت على الهرمين الوقوف كثكلة لا تريم الحفر
ترجى لبانيهما عودة وكيف يعود الرميم النخر

اذن فأبو الهول يقف منتظرا عودة الفراعنة ولكن شوقى يستبعد هذه العودة هل احس الشاعر بلوعة التمثال وكأنه غريب فى الزمان يهاجر الى زمنه الاول محلقا بحثا عن المجد والرخاء والقوة — لا شك أن هاجس القوة كان يحتل فى نفس الشاعر مكانا واضحا . فمصر كانت تبحث عن ذاتها فى ذلك الوقت ومن الطبيعى أن يقوم الشاعر بهذا التشريح التاريخى مركزا على قيمتين اساسيتين هما : القوة — والعقل وكأنه بهذا يشير الى وطنه موضحا من خلال جلال التاريخ ان طريق النهوض والبعث لابد له من هاتين القيمتين .

ولعل الحسرة تتبدى له وهو ينظر الى عاصمة المجد القديمة ممفيس وقد انحطت الى قرية اجد ما فيها ما قد اندثر . وما أروع هذه الصورة الباهرة للجمود . جمود هذه القرية التى كانت فى الماضى عاصمة للحضارة الفرعونية .

تكاد لاغراقها فى الجمود اذا دارت الارض بها لم تدر

ثم يدعو الشاعر الى النهضة والاقتداء بالاجداد :

فهل من يبلغ عنا الاصول بأن الفروع اقتدت بالسير

هو فى الواقع ينهى قصيدته بنوع من الرضى عن أمته وعن خطواتها الشابة على مدارج الحضارة المعاصرة . وقد القيت هذه القصيدة فى حفل افتتاح مسرح الازبكية « المسرح القومى حاليا وكان تمثال لابى الهول قد اقيم فى فناء هذا المسرح فلما أتم الصوت الاول الذى القى القصيدة الابيات التى قالها شوقى مسائلا أبي الهول نهض صوت آخر ليعلن أن الصبح طلع ثم انشق صدر أبى الهول عن فتى وفتاة مثلا أمامه وانشدا نشيدا مطلعه :

اليوم نسود بوادينا ونعيد محاسن ماضينا

تؤكد هذه القصيدة أول ما تؤكد ثقافة شوقى الواسعة ووطنيته وغيرته على بلاده وهى تعطى صورة حية عامرة بالاحساس لهذه

العبقرية الشعرية التى تألقت ولم تخب أبدا أن البحر المتقارب يستجيب لهذا السرد التاريخى الذى حاول الشاعر أن يلتقطه من العصور المختلفة ولكن هذا البحر نفسه يتوتر ويصعد فى لحظات التأمل الميتافيزيقية ليلائم اللحظة النفسية التى يمر بها الشاعر . ان اللغة تكتسب مرونتها وقوتها من مهارة الموهبة التى تستخدمها وقد كان شوقى عبقريا حقا فى صقل ديباجته الشعرية حتى صعد الشعر على يديه الى ذروة عالية . واذا كان شوقى قد أنشد الانسانية هذه القصائد الباقية فان هذه القصائد نفسها لن تكف عن اعطاء أبهى الصور وأزهاها لشاعرية أمير الشعراء أحمد شوقى .

الخــــــريف

للشاعر الدكتور ابراهيم ناجى

القصـــــــــيدة

يا حبيبى غيمة فى خاطـــــــرى ... وجفونى وعلى الأفق ســـحابه
غفـــــر الله لهــــا ما صـــنعت ... كلمــــا شاكيتها تندى كآبـــه
صرخ القفـــر لهـــا منتحبـــا ... وبكى مستعطفا ممـــا أصـــابه
فأصم الغيث عنــــه اذنـــــه ... ما على الايام لـــو كان أجـــابه

كثر الهجر على القلب فهـــــل ... من ســــــلو او بعاد يرتضـــيه
أنت فجر من جمــــال وصـــبا ... كل فجر طـــالع ذكرنيـــــه
كيف جانبتـــــك ابغى ســــلوة ... ثـــم ناجيتـــك فى كل شـــبيه
أيا الســــاكن عينى ودمـــى ... اين فى الدنيـــا مكان لست فيه

عند أزمـــــع ركب العمـــــر ... رحلة نحو المغـــانى الأخـــر
ظهرت تجلوك كـــف القــــدر ... صـــورة اروع مافى الصـــور
نتراءى فى الشـــباب العطـــر ... نفحة تحمـــل طيب الســـحر
وقـــف العمـــر لهـــا معتذرا ... وثنى الركب عنـــان الســـفر

عندما اقفرت الدنيا جميعـــا ... لحت لى تحمل عمرا وربيعــــا
ان يكن حلمـــا تولى مسرعـــا ... اجمل الاحلام ما ولى سريعـــا
ان يكن مـــا كان دنيـــا يقتضى ... خلنى ادفعـــه عنك دموعـــا
قد شربناه عـــزيزا غاليـــــا ... ان تكن بعـــت فانى لن أبيعـــا

يا ندامى الحب ســـمار الهوى ... سكبوا لى السهد فى ذاك الشراب
أرقنى أجـــرع الســـقم وبى ... صفرة الكأس واوهام الحبـــــاب
كلمـــا تقبـــل أيام المنـــى ... تنجلى النعمـــاء عن ذاك السراب
وترى أيامـــى الحـــيرى على ... عرسها الضاحك احزان الضباب

لم اقيـــدك بشـــىء فى الهوى ... أنت من حبى ومن وجـــدى طليق
الهوى الخالص قيـــد وحـــده ... رب حر وهو فى قيـــد وثيـــق
مزقت كفيك أشـــواك الهـــوى ... وانا ضـــقت بأحجـــار الطريق
كـــم ظمـــى بظمـــى يرتوى ... وغريق مســـتعين بغريـــق

ياليـــالى العمر ما سر الليـــالى ... البطيئـــات المـــلات الطوال
مسرعات مبطئات ولهـــــا ... خفة الموت وأثقـــال الجبـــال

كاسفات البال عرجاء المنى عاثرات الحظ شوهاء الظلال
عجبا للعمر يمضي مسرعا للمنايا بسلحفاة الملال

يا قماري الروض فى ايك الهوى جفت الروضة من بعد النديم
حل بالايك خريف منكر وظلال قاتمات وغيوم
ماتت الروضة الا طائفا من هوى حى على الذكرى يقوم
فاذا انكر ما حل بها فر يبغى سربه بين النجوم

شاهت الدنيا وجوها ورؤى وتولاها سهوم ووجوم
يا عذارى الحسن فى ظل الصبا كل حسن بعد ليلاى دميم
يا نعيم العيش فى ظل الرضا آه لو أعرف ماطعم النعيم
انكر الجنة قلب ضجر ابدى النار موصول الجحيم

طالما موهت بالضحك فما غير التمويه رايا لك فيا
كلما تنظر فى عينى ترى سرى الغافى ومعناى الخفيا
وترى فى عمق روحى زهرة قد سقاها الحزن دمعا أبديا
ويراه الناس طللا وترى أنت دمعا غائما فى مقلتيا

يا فؤادى ما ترى هذا الغروب ما ترى فيه انهيار العمر ؟
ما ترى فيه غريقا ذا شحوب يتلاشى فى خضم القدر ؟
ما تراها اتأدت قبل المغيب ورمت من عرشها المنحدر
لفتة الحسرة للشط القريب قبل أن تسقط خلف النهر

يا فؤادى قاتل الله الضجر وعذابى بين حل وسفر
ما ترى قنطرة من بعدها راحة ترجى وبال يستقر
ذلك الجرح وما افدحه ما عليه لوالى السلوى عبر
قد طواه اليوم فى بردته واتى الليل عليه فانفجر

مر يومى فارغا منك ومن أمل اللقيا فما اتعس يومى
انت يومى وغدى أنت وما من زمان مر بى لم تك همى
آه كم اغدو صغيرا حاجتى لك كالطفل الى رحمة ام
ولكم اكبر بالحب الى أن اغتدى مستشرقا افاق نجم

اى سر فيك انى لست ادرى كل ما فيك من الاسرار يغرى
خطر ينساب من مفتر ثغر فتنة تعصف من لفتة نحر
قدر ينسج من خصلة شعر زورق يسبح فى موجة عطر
فى عباب غامض التيار يجرى واصلا ما بين عينيك وعمرى

ذات ليل والدجى يغمرنا اترى تذكر اذ جزنا المدينة ؟
كلما روعت من نار شج حرما يصلى تلمست جبينه

بيد شـــفافة مثـــل الندى الرطب تعيد النـــار بردا وســـكينه
ايهـا الآســى لنـــارى هذه   ما الذى تصنع بالنار الدفينـــه

أخيـــالا كان هــــذا كــــله   ذلك الجسر الذى كنا عليـــــه
والمصـــابيح التى فى جانبيــــه   ذلك النيل ومـــا فى شـــاطيئه
وشـــعاع طوفت فى مائـــــه   وظلال رســـبت فى ضـــفيته
وحبيـــب وادع فى ســـاعدى   ووعود نلتهـــا من شـــفتيه

رب لحـــن قص فى خاطـــرنا   قصة الحادى الذى غنى سهاده
وكأن الصـــمت منه واحـــة   هيأت من عشبها الرطب وساده
ها اناعدت الى حيث التقينـــا   فى مكان رفرفت فيه الســـعادة
وبه تد رفرف الصمت علينـــا   ان فى صمت المحبين عبـــادة

رفرف الصـــمت ولـكن اقبلت   من اقاصى السهل أصـــداء بعيده
تتهادى فى عبـــاب ســـاحر   مرسل للشـــط امواجـــا مديده
كـــم نداء خـــافت مبتعـــد   تشتهى أذن الهوى أن تستعيده
عاد منســـابا الى اعماقهـــا   هامســـا فيها بأصـــداء جديده

رفرف الصـمت ولكن هاهنـــا   كل ما فيـــك من الحسن يغنى
آه كم من وتـــر تـــام على   صدر عود نوم غاف مطمئـــن
وبه شتى لحـــون من اســـى   وحنـــين وأنـــين وتمنـــى
رقد العاصـــف فيه وانطوت   مهجة العود على صـــمت مرن

هذه الدنيا هجـــير كلهـــا   اين فى الرمضـــاء ظل من ظلالك
ربما تزخـــر بالحسن ومـــا   فى الدمى مهما غلت ســـر جمالك
ربمـــا تزخـــر بالنوروكـــم   من ضـــياء وهو من غيرك حالك
لو جـــرت فى خاطرى أقصى المنى   لتمنيت خيـــالا من خيـــالك

أنا ان ضاقت بى الدنيـــا افىء   لثوان رحبـــة قد وســـعتنا
انما الدنيـــا عبـــاب ضـــمنا   وشطوط من حظوظ فرقتنـــــا
ولقد أطفوا عليـــه قلقـــا   غارقـــا فى لحظة قد جمعتنـــا
كلما تترى المعـــانى اجتـــلى   خلف معناها لأسرارك معنـــى

ما الذى صبك صـــبا فى الفؤاد   ما الذى ان اقصه عنى عـــاد
طاغيا يعصف عصفا بالرشـــاد   ظامئا ســـيان قرب وبعـــاد
ساهر العينين موصول الســـهاد   ما الذى يجرى لهيبا فى الرمـــاد
ما الذى يخلقنـــا من عـــدم   ما الذى يجرى حياة فى الجمـــاد

كم حبيب بعـــدت صـــهباؤه   وتبقت نفحـــة من حببـــه
فى نسيج خـــالد رغم البـــلى   عبث الدهـــر ومـــا يعبث به
ما الذى فى خصلة من شـــعره   ما الذى فى خطـــه او كتبـــه

ما الذى فى أثــــر خلفـــــــه من افائين الهوى أو عجبــــــه

مــــا الذى فى مجلس يألفـــــه عقـــــد الحب عليه موعـــــده
ربمـــــا يبكى أســـى كرسـيه ان نأى عنــــه وتبكى المـــائدة
ربمـــــا تحسبها هشـــت اذا عائد هش لهـــــا أو عائـــــــده
ربمـــــا تحســـبها تســـألنا حـــين تمضى أفراق لعـــــــده

كم أعدت لك سترا فى الخفـــاء وتوارت عن عيون الرقبــــــاء
كم اعدت نفســـــــها وانتظرت واستوت موحشة تحت السـماء
وهى لو تمـــلك كفـــا صافحت كفك الحـــلوة فى كل مســــاء
وهى لو تمـــلك جودا بذلــت كل ما تمـــــلك كف من ســـــخاء

رب كرم مده الليـــــل لنـــــا فتواثبنـــــا له نبغى اقتطـــــافه
وعلى خيمتـــــه أســـــــوده عربى الجود شرقى الضـــيافة
وجـــــد العرس على بهجتـــــه وســــــناه دون ورد فأضـــــافه
ثـــم وارت يـــده جنبيــــة وطوته اســــــاطير الخرافــــة

ارج يعبـــــق فى أنحـــــائه حملتـــه نحو عرشــــينا الرياح
كل عطر فى ثنــــاياه ســـــرى كان سرا مضـــــمرا فيه فبـــــاح
يالها من حقبـــــة كانت عـــــلى قصر فيهـــــا كآماد فســـــاح
نتمنى كلمــــا طـــــابت لنـــــا ان يظل الليل مجهول الصـــباح

يا فؤادى العمر ســـفر وانطوى وتبقت صـــــفحة قبـــــل النوى
ما الذى يغريك بالدنيا ســـــوى ذلك الوجــــــه وذياك الهـــوى

* * *

شاعر هذه القصيدة هو الشــــاعر الطبيب الدكتور ابراهيم ناجى واحد من ابرز من الممثلين لهذا التيار الشعرى الذى عرف فى الثلاثينيات بتيار المدرسة الرومانسية او جماعة ابو للو التى أسسها الدكتور احمد زكى ابو شادى وراسها امير الشعراء احمد شوقى فترة قصيرة قبـــل وفاته . وقد انبثقت هذه المدرسة بمفهومها للشعر من الحملة النقدية التى قام بها عبـــــاس العقاد والمـــــازنى فى كتابهمــــا الهـــام الديون

فجاء شعر ناجى واقرانه ثورة جذرية تعبر عن طموح الذات للتعبير عن نفسها والخروج من الاطار التقليدى الذى رفع قواعده العاليـــــة أحمد شوقى ومدرسته . وكان من بين شعراء مدرسة أبوللو البارزين الى جانب الدكتور ابراهيم ناجى . على محمود طه وابو القاسم الشـــابى وأحمد زكى أبو شادى والتيجانى يوسف بشير ومحمود حسن اســـماعيل

وحسن كامل الصيرفى وغيرهم وكان ناجى يتميز بينهم بهذا الصوت المشحون بالالم الفياض بالعواطف الانسانية يتشح عالمه بهذا الحزن الغامر الذى يكتنف نفسه والطبيعة من حوله . ويتوغل فى صميم علاقاته الانسانية . كان احساسه بالزمن احساسا رومانتيكيا فالزمن عنده ليس الخلود الذى يتجاوز تطلعاتنا وطموحنا ويسحقنا فى لامبالاة قاسية وانما الزمن مندمج بمفهوم الحياة فلا فصل بينهما . زمن خاص لان الحياة ذات مغزى خاص . ومن هنا فقد كانت رؤيته للزمن محدودة بأيام عمره . هذا العمر نفسه كان يجد حقيقته فى عاطفة واحدة وفى احساس واحد . هى عاطفة الحب والاحساس بالسعادة . وكان الحب شاحبا والسعادة غائبة على الدوام . ولد ابراهيم ناجى فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٩٨ فى بيئة مثقفة محبة للعلم حيث كان والده يمتلك مكتبة غنية ولقد ادرك هذا الوالد منذ البداية علامات الموهبة تلوح فى مخايل ولده فوجهه للاستفادة منها . أعلنت شاعريته عن نفسها فى وقت مبكر فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو فى الثالثة عشرة من عمره وكان اعجابه الاول بالشريف الرضى . تخرج فى كلية الطب عام ١٩٢٣ ومارس الطب لمدة أربع وعشرين سنة . بدأت مرحلة هامة من حياة الشاعر بظهور ديوانه الاول « وراء الغمام » عام ١٩٣٤ وقد قوبل هذا الديوان كما يقول الدكتور طه وادى فى كتابه « شعر ابراهيم ناجى الموقف والاداة » — « قوبل ديوان ناجى الاول بحفاوة بالغة ولكن نقد طه حسين قد أساءه وادمى روحه والحقيقة أن طه حسين قد ظلم الشاعر ناجى حين حكم على شعره بأحكام لفظية عامة واتهمه بأنه « شاعر هين لين » وأن شعره أشبه بموسيقى الغرفة ثم أخذ يتتل الديوان وصاحبه بالملاحظات الجزئية المتناثرة حول قصيدة واحدة هى « قلب راقصة » ولعل ابلغ ما أساء اليه هو المقارنة غير العادلة بينه وبين على محمود طه حيث تعصب له طه حسين وفضله على ناجى » .

وقد أصدر ابراهيم ناجى بعد ديوانه الاول ديوانه الثانى « ليالى القاهرة » عام ١٩٤٤ ثم ديوانه الثالث « معبد الليل » عام ١٩٤٦ ثم صدر له بعد وفاته الجزء الاخير من ديوانه « الطائر الجريح » عام ١٩٥٣ . واصدر الاستاذ حسن توفيق خلال عام ١٩٧٨ بعض القصائد المجهولة للشاعر . وبهذا نستطيع أن نقول بأن الشاعر قد أنشأ تراثا شعريا غزيرا يصل الى خمسة دواوين شعرية وقد توفى الشاعر فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٣ بعد حياة مليئة بالاحزان الخاصة والعامة وقد تنفست هذه الاحزان فى قصائد دواوينه فملأتها رقة وعذوبة وان كانت الكآبة قد سيطرت على الجزء الاكبر من هذه القصائد . ومفهومه للشعر يتمثل فى هذه الكلمات التى أوردها فى مقدمة ديوانه الثانى «ليالى القاهرة» يقول الدكتور ابراهيم ناجى « الشعر عندى هو النافذة التى أطل منها على الحياة واشرف منها على الابد وما وراء الابد هو الهواء الذى أتنفسه وهو البلسم الذى داويت به نفسى عندما عز الاساه هذا هو شعرى » والحقيقة أن هذا المفهوم للشعر لا يكشف الا عن مواجع وآلام الشاعر

بدلا من الكشف عن أسرار الصنعة الفنية عنده فهو ليس معنيا بتحديد أصول نقدية للعملية الابداعية بقدر ما هو معنى بالافاضة عن نفسه . انه تلقائي في شعره وتلتائي في تعبيره عن هذا الشعر ولقد كان — شعره مرآة صافية لالامه . وأحزانه . ولا شك أنه كان ينكر ان يكون دوره هو الحديث عن الشعر بل كان الشعر همه الاوحد .

يقول الدكتور طه حسن في محاولة للتعريف بشعر ناجي « ليس الدكتور ناجي رجلا حسن البلاء صادق النية في حب الشعر فحسب وانما هو فوق هذا كله موفق الى حد بعيد فيما يحاول من ارضاء الشعر وأصحابه موفق فيما قصد اليه من المعاني موفق فيما اصطنع من الالفاظ موفق فيما اتخذ من الاساليب . معانيه جديدة تصل احيانا الى الروعة الفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة وأساليبه جيدة أيضا عظيمة الحظ من الصفاء لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء في كثير من الاحيان شاعر مجيد تألفه النفس ويصبو اليه القلب ويأنس اليه قارئه احيانا ويطرب له سامعيه دائما . . من هؤلاء الشعراء الذين يحسن ان تستمتع بما في شعرهم من الجمال . كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون نشتط عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت عذب النفس خفيف الروح قوى الجناح شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التي تذهب بك كل مذهب وتهيم بك فيما نعرف وما لا نعرف من الاجواء » ولا شك ان الرقة الصافية والهمس الرقيق الذي كانت تنضح بهما قصائد ناجي هي التي عرضته للاتهام بالضعف من قبل الدكتور طه حسين . وقد ادرك الناقد الدكتور مندور في كتابه « في الميزان الجديد » ان هذا الشعر الرقيق انما هو شعر انساني لا يدل على ضعف في تكوين الشخصية يقول الدكتور مندور موضحا نظريته الجديدة : « الهمس في الشعر ليس معناه الضعف فالشاعر القوى هو الذي يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه في نغمات حارة ولكنه غير الخطابه التي تغلب على شعرنا فتفسده اذ تبعد به عن النفس عن الصدق عن الدنو من القلوب . الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع في غير جهد ولا احكام صناعة . وانما هو احساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها مما تجد وهذا في الغالب لا يكون من الشاعر عن وعي وانما هي غريزته المستنيرة لا تزال به حتى يقع على ما يريد . الهمس ليس معناه قصر الادب او الشعر على المشاعر الشخصية . فالاديب الانساني يحدثك عن أي شيء يهمس به فيثير فؤادك ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت اليك بسبب » وفي ضوء هذا الرأى الجديد الذي نادى به الدكتور محمد مندور يمكن اعادة تقييم شعر ابراهيم ناجي الذي لحقه ظلم ادبي شديد :

قصيدة الخريف التي نحن بصددها هي احدى روائع ديوانه الثاني « ليالي القاهرة » وهي تعكس صورة حزينة لآمال خائبة وحب تولى

وذكريات تشع بالفرح حينا وبالحزن فى أكثر الاحيان . تبدأ القصيدة بصرخة رمزيه يطلقها الجدب الموحش فى النفس طالبا الارتواء . والشاعر يقرر من البداية أن الغيوم منعقدة فى خاطره وجفونه وعلى الافق أيضا فما هى هذه السحابة التى يراها الشاعر أم هى ثلاث غيمات مختلفة أغلب الظن أن الغيوم الثلاث رموز لثلاثة معان متباينة . فالغيمة الاولى التى يحملها فى خاطره انما هى رمز للذكرى التى يستعيدها الشاعر فلا تعود والغيمة التى يحملها فى جفونه هى غيمة الدموع التى تحتشد فى عينيه باحثة عن مخرج تخفف به عن نفس الشاعر أما السحابة المعلقة فى الافق فهى سحابة الامل التى يرجوها الشاعر أن تروى قفر حياته . ومن هنا فهو يركز حديثه ونداءه لها ولكنها لا تمطره الا الكآبة ولا تستجيب لبكائه واستعطافه وما من شاعر يحاول أن يرسم صورة للخريف يمكن أن يكون أكثر توفيقا من هذه البداية المعتمة المجدبة التى لا يريد الغيث أن يمد لها يد العون . بعد هذه الصورة الرمزية التى جسد فيها الشاعر أحزان نفسه وعدم استجابة الواقع بالامل . يفصح الشاعر عن كوامن اللوعة فى نفسه . انه الهجر الذى ثقل على القلب وقد اختار الشاعر لفظ « كثر » بدلا من « ثقل » للدلال على ان الهجر ليس فقط هجر الحبيبة انما هو هجر كثير متعدد المصادر والدوافع . ويبحث الشاعر عن سلوى تريح قلبه أو فراق يرضيه . ولكن سحر جمال المحبوبة قد سد أمامه جميع المنافذ فهو قد ملأ عليه شغاف نفسه يحاصره حصارا محكما لا فكاك منه وما أبلغ تعبيره عن تمكن الحب من نفسه وامتلاء هذه النفس بمحبوبها حتى لتراه فى كل مكان .

أيها الساكن عينى ودمى أين فى الدنيا مكان لست فيه

فالعين وسيلة الرؤية والدم طريق الاحساس فهو يراها فى كل مكان ويحس بها أيضا . وهذا البيت لاستخدامه « العين والدم » قد بلغ الذروة فى كمال المعنى الذى ورد فى الشطر الثانى من البيت .

يحاول المؤلف أن يصور اغراء هذه الحبيبة وتفوقها فى المقطع الثالث . أما المقطع الرابع فهو تعبير عن جمال الاحلام السريعة التى يرى الشاعر أن سر جمالها فى سرعتها وهو يتصدى بدموعه للوفاء بدين الهوى الثقيل ولا يتردد الشاعر فى تمسكه بحبه معرضا عن التفريط والبيع .

قد شربناه عزيزا غاليا ان تكن بعت فانى لن أبيعا

فى المقطع الخامس يتوجه الشاعر الى رفاقه لعل لديهم السلوى ولكننا نلاحظ المزج فى هذا المقطع بين المتناقضات . فها هو السهد قد سكب فى الشراب وها هى أيام الشباب تنجلى عن الوهم ويمتزج العرس الضاحك بأحزان الضباب ان الشاعر يعلن عجزه وفشله وعدم قدرته على الفكاك من اسره الذى سقط فيه . ثم يرجع الى المحبوب مرة أخرى متوسلا راجيا باسطا يد العذر والاعتذار فهو فى الواقع لم يقيد هذا المحبوب بقيد يثقل عليه بل لقد ترك له الحرية المطلقة فالحب قيد خفى وهو لا يريد له مزيدا من الاغلال فالحب بأشواكه قد مزق كفى المحبوب بين صعاب الطريق تلك التى رمز اليها بالاحجار هى الاحجار قد أدمته ودفعت نفسه الى الضيق . وها هما مرتبطان بقدر واحد وكأنهما غريقان يمسك كل منهما بتلابيب الاخر . وينتقل الشاعر بعد ذلك الى التأمل . ان الهجر قد أورثه الاحساس ببطء الزمن . زمنه الداخلى الخاص ولكنه فى نفس الوقت يعى أن الزمن الخارجى الذى ينهى الاعمار يبلى والارواح ليس بطيئا ولا متمهلا . وهذه المعانى العميقة والمقطع الرائع الذى يصور فيه الحياة مملة بطيئة مجسدا الليالى كأنها من أروع ما تضمه هذه القصيدة من اشراقات صافية تغمر النفس بالحقيقة. أجساد تتحرك على مهاد الزمن هذا المقطع يفلح فى اعطاء المعنى العميق لصورة الهجر دون أن يتحدث عنه . ولا يستسلم الشاعر لبطء الليالى فيرفع الرأس مخاطبا القمارى كما كان أبو فراس الحمدانى يخاطب الحمائم لعلها تعزيه فى محنته . انه يشكو وطأة الخريف ووجهه الممل وظلاله القاتمة وغيومه العقيم فها هو يعلن موت هذه الروضة بعد رحيل النديم . والروضة هنا هى روضة الحب أما الخريف فهو الهجر المؤلم الذى قتلها بملاله وظلاله السوداء وما الذى يتبقى للانسان بعد أن تذبل روضته وتغيم السماء فوقه . فهل الدنيا الا هذا الطقس الداخلى الذى يجدب ويثمر بغياب الحب وحضوره وليس عجيبا اذن أن يعلن الشاعر أن الدنيا كلها قد شاهت وتولاها الوجوم والفتور وعدم الرغبة فى شىء . وقد يحاول الشاعر أن يلبس قناعا زائفا للسعادة وذلك بافتعال الضحك ولكن محبوبته وحدها تدرك السر الذى يقيم فى نفسه وها هو يجسد هذا السر فى هذا البيت الجميل الذى يقول .

وترى فى عمق روحى زهرة قد سقاها الحزن دمعا أبديا

فهذه الزهرة تحمل من الدلالات معانى كثيرة هل هى زهرة النفس وحقيقتها أم هى زهرة الحب أم زهرة السعادة الضائعة كل هذه معانى محتملة لا يكشف عنه الشاعر . واذا كان الخريف انما هو تجسيد لذبول العاطفة وخمود الحب وتحكم الهجر فان الغروب هو الاخر يتآزر معه فى رسم الصورة المكملة لفاجعة الحب ومأساة الحياة . وهو يوجه خطابه هذه المرة الى فؤاده فقد خاطب الحبيبة مرة والندامى مرة وطيور الروض مرة وآب الى فؤاده يستغيثه ويسأله ان كانت الحبيبة قد جادت بلفتة للشط القريب وبعد أن يتوجع من اليأس ويصور فراغ أيامه من لقائها

يتوقف بنا فجأة كأنه اكتشف جمالها وسرها وكأن هذه الصحوة المفاجئة انما هي محاولة لانقاذ نفسه من التردي في الجنون انه يؤكد لنفسه ان سحرها لا يقاوم . ويقف المقطع الذي يبدأ بقوله اى سر فيك في قلب القصيده كومضة اشراق . يكرس لها الشاعر كل قدراته الشعرية لوصف سحر وجمال المحبوبة . هذا السحر الغامض الغريب الذي يعلن عن نفسه في فتنة الجسد . ويحتشد هذا المقطع بضجة موسيقية كبيرة كأنه يحاول أن يقيم لها عرسا في نفسه يشفي نفسه من الضجر والملل . ان هذه الموسيقى العالية المفاجئة تأتي كمحاولة لمقاومة الضجر والملال وبطء الليالي الطويلة لعلها تبث الحيوية في اوصال الحياة من جديد ثم يعود بعد ذلك الى التذكر ولكن كل ذكرياته تقود الى مدينة الوهم والحسرة والتفجع على أيام الهناءة العابرة ولكنه مستشبثبذكرياته عائد الى مغانيه القديمة .

ها أنا عدت الى حيث التقينا في مكان رفرفت فيه السعادة
وبه قد رفرف الصمت علينا ان في صمت المحبين عبادة

ان رفرفة الصمت تعطي للصمت معنى خاصا فهو يشبه الطائر السعيد ان الرفيف يوحي بالخفة والسعادة وقد الح الشاعر على هذه الصورة كأنه وجد فيها انعكاسا حقيقيا للرضى نفسه وسعادتها . ثم عاد الشاعر يتوجع ملتمسا جمالها يلوذ به من هجير الحياة وقد يميل الى تحميل الاقدار مسئولية الفراق .

انما الدنيا عباب ضمنا وشطوط من حظوظ فرقتنا

ونراه بعد ذلك يتجول بين اثار الحبيب الكرسى والمائدة وكأنه يعقد الامل على الذكرى بدلا من الحقيقة الهاربة في أن تمنحه السعادة ويختتم الشاعر قصيدته كما لو كان يرثى عصرا بأكمله مؤمنا بنهاية كل شيء ناظر الى تجربته العاطفية كما لو كانت العمر نفسه فها هو يخاطب فؤاده :

يا فؤادي العمر سفر وانطوى وتبقت صفحة قبل النوى
ما الذي يغريك بالدنيا سوى ذلك الوجه وذياك الهوى

هذه روح ابراهيم ناجي المضيئة لا ترى في الحياة الا الحب ولا ترى في الحب الا الالم . أما قصيدة الخريف فمرثية رائعة لتجربة خصبة عميقة ملأت حياة الشاعر بالتعاسة والفرح ولكنها انتهت كما ينتهي كل شيء . تفصح القصيدة في كل أبياته عن المعاني الاساسية التي عاش لها ومات ابراهيم ناجي وهي ، الحب ، والحزن، والجمال .

فى الغربة

للشاعر محمود سامى البارودى

تأوب طيف من سـميرة زائـر ... وما الطيف الا ما تريـه الخواطر
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب ... بأرواقه والنجم بالافق حائـر
فيـالك من طيف ألم ودونـه ... محيط من البحر الجنوبى زاخـر
تخطى الى الارض وجدا ومالـه ... سوى نزوات الشوق حاد وزاجر
ألم ولم يلبث وسـار وليتـه ... أقام ولـو طالت على الدياجـر
تحمل أهوال الظلام مخـاطرا ... وعهدى بمن جادت به لا تخـاطر
خماسية لم تدر ما الليـل والسرى ... ولم تنحسر عن صفحيتها الستائر
عقيـلة اتراب توالين حولهـا ... كما دار بالبدر النجوم الزواهـر
غوافل لا يعرفن بؤس معيشـة ... ولاهن بالخطب الملم شـواعر
تعودن خفض العيش فى ظل والد ... رحيـم وبيت شـيدته العناصر
فهـن كعنقود الثريا ، تألقـت ... كواكبه فى الافق فهى سـوافر
تمثلهـا الذكرى لعينى كأننـى ... اليها على بعد من الارض ناظـر
فطورا اخال الظن حقـا وتارة ... اهيم فتغشى مقلتى السـمادر
فيـا بعد ما بينى وبين أحبتـى ... ويا قرب ما التفت عليه الضمائر
ولولا امانى النفس وهى حياتهـا ... لما طار لى فوق البسـيطة طائر
فان تكن الايام فرقن بيننـا ... فكل امرىء يوما الى الله صـائر
هى الدار ما الانفـاس الانهائب ... لديها وما الأجسـام الاعقـائر
اذا احسنت يوما اساءت ضحى غد ... فاحسانها سيف على الناس جائر
تربب الفتى حتى اذا تم امـره ... دهته كما رب البهيمة جـازر
لها ترة فى كل حى ومـا لهـا ... على طول ما تجنى على الخلق واتر
كثـيرة الوان الوداد مليـة ... بأن يتوقاهـا القرين المعـاشر
فمن نظر الدنيا بحكمة ناقـد ... درى أنها بين الأنام تقامـر
صبرت على كره لما قد أصـابنى ... ومن لم يجد مندوحة فهو صـابر
وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز ... بمستحسن كالحلم والمرء قـادر
ولكن اذا قل النصـير واعوزت ... دواعى المنى فالصبر فيه المعاذر
فلا يشمت الاعداء بى فلربمـا ... وصلت لما ارجوه مما احـاذر
فقد يستقيم الامـر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العوائـر
ولى أمل فى الله تحيا به المنـى ... ويشرق وجه الظن والخطب كاشر
وطيد يزل الكيـد عنه وتنقضى ... مجـاهدة الايام وهو مثـابر
اذا المرء لم يركن الى الله فى الذى ... يحاذره من دهره فهو خـاسر
وان هو لم يصبر على ما اصابه ... فليس له فى معرض الحق ناصـر
ومن لم يذق حلو الزمان ومـره ... فما هو الا طائش اللب نافـر
ولولا تكاليف السيادة لم يخـب ... جبان ولم يحو الفضيلة ثائـر

تقل دواعى النفس وهى ضعيفة   وتقوى هموم القلب وهو مغامر
وكيف يبين الفضل والنقص فى الورى   اذا لم تكن سوم الرجال المآثر
وما حمل السيف الكمى لزينة   ولكن لأمر اوجبته المفاخر
اذا لم تكن الا المعيشة مطلب   فكل زهيد يمسك النفس صابر
فلولا العلا ما ارسل السهم نازع   ولا شهر السيف اليمانى شاهر
من العار ان يرضى الدنية ماجد   ويقبل مكذوب المنى وهو صاغر
اذا كنت تخشى كل شىء من الردى   فكل الذى فى الكون للنفس ضائر
فمن صحة الانسان ما فيه سقمه   ومن امنه ما فاجأته المخاطر
على طلاب العز من مستقره   ولا ذنب لى ان عارضتنى المقادر
فما كل محلول العريكة خائب   ولا كل محبوك التريكة ظافر
فماذا عسى الاعداء ان يتقولوا   على وعرض ناصح الجيب وافر
فلى فى مراد الفضل خير مغبة   اذا شأن حيا بالخيانة ذاكر
ملكت عقاب الملك وهى كسيرة   وغادرتها فى وكرها وهى طائر
ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة   لصبحنى بها والدهر فيه المعاير
ولكن ابت نفسى الكريمة سواة   تعاب بها والدهر فيه المعاير
فلا تحسبن المال ينفع ربه   اذا هو لم تحمد قراه العشائر
فقد يستجم المال والمجد غائب   وقد لا يكون المال والمجد حاضر
ولو ان اسباب السيادة بالغنى   لكاثر رب الفضل بالمال تاجر
فلا غرو ان حزت المكارم عاريا   فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسر
انا المرء لا يثنيه عن درك العلا   نعيم ولا تعدو عليه المفاقر
قئول واحلام الرجال عوازب   صئول وافواه المنايا فواغر
فلا انا ان ادنانى الوجد باسم   ولا انا ان اقصانى العدم باسر
فما الفقر ان لم يدنس العرض فاضح   ولا المال ان لم يشرف المرء ساتر
اذا ماذباب السيف لم يك ماضيا   فحليته وصم لدى الحرب ظاهر
فان كنت قد اصبحت فل رزية   تقاسمها فى الأهل باد وحاضر
فكم بطل فل الزمان شباته   وكم سيد دارت عليه الدوائر
واى حسام لم تصبه كلالة ؟   واى جواد لم تخنه الحوافر
فسوف يبين الحق يوما لناظر   وتنزو بعوراء الحقود السرائر
وما هى الا غمرة ثم تنجلى   غيابتها والله من شاء ناصر
فقد حاطنى فى ظلمة الحبس بعدما   ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر
فمهلا بنى الدنيا علينا فاننا   الى غاية تنفت فيها المرائر
تطول بها الانفاس بهرا وتلتوى   على فلكة الساقين فيها المآزر
هنالك يعلو الحق والحق واضح   ويسفل كعب الزور والزور عاثر
وعما قليل ينتهى الامر كله   فما أول الا ويتلوه آخر

***

شاعر هذه العصماء هو رائد النهضة الشعرية العربية المعاصرة والذى عرفناه بلقب رب السيف والقلم محمود سامى البارودى . واذا كان لنا ان نقدم وصفا تاريخيا لحياته تحدده الارقام والسنوات والأيام فان حياته وشعره يظلان عصيان على هذا الوصف التاريخى لانهما

يتجاوزان حدود المصطلح الى مدار بعيد وعميق من العبقرية والثورة والالهام والبعث .

ولد محمود سامى البارودى فى السادس من اكتوبر عام ١٨٣٩ فى بيت اسرة البارودى بباب الخلق بالقاهره ابنـــا لأسرة جركسية . كان والده احد امراء المدفعية وجاء لقبه البارودى نسبة الى ايتاى البارود حيث كان احد اجداده ملتزما لها . ولقد اعطت الدنيا والموهبة للبارودى كل اسباب النعمة والبلاء اعطته . حظا عظيما من المجد وحظا كبيرا من التعاسة الشخصية . فهى حياة غنية بكل المعايير الانســـانية والفنية والاجتماعية والسياسية .

نشأ البارودى يتيما فقد مات والده وهو فى السابعة من عمره وبعد ان تلقى تعليمه الأول فى بيته شأن ابناء الطبقة الاروستقراطية وطبقـــة المماليك والترك فى ذلك العصر توجه الى المدرسة الحربية التى تخرج منهـــا فى عام ١٨٥٤ . ومـــا ان أكمل الشـــاعر الفارس تعليمـــه العســـكرى حتى أظـــل عهد الخديو ســـعيد حيث انتكســـت النهضـــة التى بدأها محمد على وواجـــه البارودى فراغـــا لم يكن قد تهيـــأ له وهو فى فورة شـــبابه بل لقد أعد نفســـه للمغـــامرة وخوض المعارك . والهمته النـــار المقدسة التى خلقها الله بداخله أن يتجه الى تراث الشـــعر العربى بعصوره الجاهلية والاسلامية والاموية والعباسية ينهل من منابعها . فاستوطن وجدانه هذا الشعر وفى عصوره الذهبية وما أن ذاق رحيقه حتى توهجت النـــار وفاضت موهبته شعرا غير مألوف فى عصره . كان شعراء عصره هم عبد الله فكرى ومحمود صفوت الساعاتى وعبد الله النديم وكان هؤلاء أفضل من الجيـــل الذى سبقهم والذى سقط شعراؤه فى الزخارف اللفظية والعلل النحوية والاغراض الاجتماعية السقيمة فجاء البارودى بمزمار جديد على العصر تـــرن فى انغامه كل عصـــور الشعر العربى الغابرة . فى الوقت الذى كانت فيه لغة الحياة نفسها أبعد ما تكون عن الصحة اللغوية فضلا عن الفصاحة العربية والبلاغة الادبية .

اتسعت ثقافة البارودى بسفره الى الاستانة موظفـــا فى وزارة الخارجية وتعلمه للغتين التركية والفارسية وعكوفه على درس آدابهما فى الاصول اللغوية لهذين الادبين غير انه ظل وفيا شـــديد الوفاء للشعر العربى واستجابة لهذه الفطرة الادبية النادرة جلس على شاطىء البسفور يتغنى بشـــعر الامويين والعباسيين الذى كان صداه بالغ العمق فى وجدانه المرهف .

وما أن عاد البارودى الى مصر حتى أظل عهد جديد هـــو عهـــد الخديو اسماعيل الذى حاول النهوض من جديد . ورقى الشاعر الى

رتبة القائمقام . وفى عام ١٨٦٥ اصبح قائد الفيلق الرابع من حرس الخديوى ثم جاءت حرب كريت وسافر البارودى على راس حملة من الضباط والجنود المصريين لاخماد ثورة جزيرة كريت التى كانت تابعة للدولة العثمانية وابلى الشاعر بلاء عظيما انتهى بالنصر . وتنبهت له العقول والانظار وحظى الشاعر الفارس بمكانة عالية فى وطنه واشترك مرة اخرى فى الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ وتجلت فيها شجاعته وكوفىء برتبة أمير اللواء وكان الشعر يتأجج فى قصائد تصف هذه المعارك الحربية مبطنة بحنين جارف الى مصر ، وحين عاد الى مصر عين مديرا للشرقية ثم مديرا للاوقاف . وقد وضعته روحه الوطنية وشجاعته وشعره فى قلب الحركة الوطنية والقومية وتولى وزارة الحربية ونالت منه المؤامرات حتى أراد الاعتزال فى مزارعه ولكنه كان علما من اعلام الحركة الوطنية متعاطفا ولكن على درجة من الحذر مع الثورة العرابية وما أن فشلت هذه الثورة التى قامت لتحقق الكرامة الوطنية والاستقلال السياسى ولمقاومة النفوذ الاجنبى . ما أن فشلت هذه الثورة حتى اخذ البارودى مع قادتها وعوقب معهم بالنفى الى جزيرة سيلان . وما كان للخونة وحلفاء الاستعمار أن يغفروا له بلاءه العظيم فى خدمة الحركة الوطنية وشعره الغيور على مصلحة الوطن وحب المصريين له وحماسه الدائم للاصلاح السياسى والاجتماعى. وقضى الشاعر سبعة عشر عاما فى المنفى كانت من أقسى المحن فى حياته ولكنها كانت فى نفس الوقت فرصة الشعر الذهبية لكى يترعرع فى صومعة الالم والحنين الجارف . وظل الشاعر يعانى الغربة والوحشة وهو بعيد يرى أسرته الصغيرة يتخطفها الموت واسرته الكبيرة يستبد بها الخونة والطغاة وحلفاء فرنسا وانجلترا فيلجأ الى الشعر الغذاء والدواء . ولكن الجسد لا يكاد يحتمل كل هذه المعاناة وهو يواجه الزمن بكل ثقله وجبروته فيضعف البدن ويذوى ويكاد البصر نفسه أن يرحل هو الاخر ويصدر أمر من الخديو عباس حلمى فى ١٧ مايو ١٩٠٠ بعودة المنفيين من أقطاب الثورة العرابية وفى مقدمتهم الشاعر محمود سامى البارودى الذى يصل الى مصر ولكنه لا يلبث بها طويلا ففى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤ تصعد روحه الى بارئها بعد رحلة طويلة فى رحاب المجد والشعر والمحنة والعبقرية والوطنية يقول : الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة ديوانه عن شعره .

« شعر البارودى حياته . فكل قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان فى مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه وللبيئة التى احاطت به وللنهضة المتوثبة فى الحياة حوله وللثورة التى تمخضت عنها تلك النهضة وللنكسة التى اصابت النهضة والثورة كلتيها والتى نقلت الشاعر من وطنه الى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام يستأثر الشعر بها جميعا وقد اختار البارودى فى اثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر فى العصر العباسى وقال أجود مما اختار . فبعث الشعر العربى خلقا جديدا وشعر المنفى

كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التى اراد لها القدر أن تكون نغما من الانغام ، تسمو بها النشوة الى ذروة السرور والطرب حينا ويدفعها الطموح الى مضطرب الثورة والمثل الاعلى حينا آخر ثم تصقلها السنين ويصقلها النفى فاذا الحكمة والحنين والحب تبعث الى هذا النغم سكينة تسمو على المألوف من الحان الحياة لا يغير من ذلك ما يدفعه النفى الى نفس الشاعر من ألم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من نزوات شبابه وثورة كهولته » .

تكشف هذه القصيدة بعد تأملها عن عالم البارودى بأبعاده الفنية والانسانية الواسعة . فهى تمثيل بالغ الحساسية والاصالة لنموذج القصيدة البارودية التى تنتمى الى شاعرها بقدر انتمائها الى عالم القصيدة العربية فى أزهى عصورها قد تحس وأنت تطالعها أن أنفاس عمالقة الشعر العربى تتردد فى ابياتها ومقاطعها وأن جرسها شائع فى قصائد المتنبى والبحترى وأبى العلاء وأن لغتها جزلة جزالة القصائد العباسية بل أن صورها الشعرية توشك أن تكون شائعة فى الشعر العربى القديم ومن ذا الذى يمنع نفسه من تذكر امرىء القيس والنابغة الذبيانى وهو يقرأ وصف البارودى لليل . ولكن هذه الالفة الشديدة فى اللغة والموسيقى والصور الشعرية والبناء الفنى الذى ينتقل من غرض شعرى لاخر هذه الالفة لا تحملك على التنكر للشاعر وأصالته ولا تحملك على التماس جذور صوره فى قصائد الاخرين حتى تسهو عن شاعرها الحقيقى بل انك لتشعر بقوة باحساسين متعارضين سرعان ما يصبحان احساسا واحدا . القصيدة تبسط عالم القصيدة القديمة أمام وجدانك فهى جياشة بالحس التاريخى العميق ولكنها تتفرد بصياغة أصيلة تحس عبقها ولا تدرك كنهها . واذا كانت التجربة تصنع الشكل فان تجربة البارودى المتميزة فى الحياة تتبدى بالغة التميز فى شكله أيضا فهو حين يصف الليل لا يصفه شاكيا ولا باكيا ولا يلحقه الوهن بل هو جلد على حوادث الإيام صابر على بلائها وينعكس صبره وجلده فى هذا التركيز والتماسك فى بنية الجملة الشعرية . وكذلك تنعكس شخصيته وتجربته بقوة فى اختيار بحر الطويل بامتداده وثقله واتساعه لامواج النفس المتاعة ولكنك لا تحس ضعفا ولا رغبة فى الافضاء بل هو يمسك بأطراف تجربته التى تتنوع بين تجسيد حلم الزيارة التى قامت بها سميرة وبين التجلد اعتمادا على ايمان بالله عميق وقد يجنح الى الفخر حيث يظل الشاعر متنبها الى جوانب العزة والقسوة فيه ولكنه لا يفرط فى ذلك ويكاد يصل الى أن مناط القوة والمجد انما هو الحكمة والفضيلة وليس المال والنعيم والجاه الكاذب . هو شاعر يقرأ على قسمات جراحه آيات من الحكمة والتواضع والتجرد من الاشياء التى يراها الان باطلة كل البطلان .

ان القصيدة تبدأ من الحلم العزيز الذى يرى فيه الشاعر خيال ابنته سميرة يزوره متخطيا الفيافي والبحار والاماد البعيدة والليالى

المظلمة . ويبدو ان قوة الشوق الغلابة فى ضميره قد جعلته يصرح من البداية ان هذا الخيال الذى جاءه ليلا انما هو تجسيد لقوة مخيلته التى تستحضر هذه الابنة على جناح الشوق . لكأنه يصارحنا من البداية انه يعانى من البعد عن اهله ولا وسيلة له الا الخيال القوى . وينسى الشاعر بعد وهلة عابرة انه صارحنا فيتمادى فى وصف هذا الخيال وكأنه يتصور اننا مازلنا مقتنعين بأن الزيارة حقيقية فى الواقع وينتقل من وصف الظلام الذى قطعه الخيال الى وصف الخيال وصاحبته بل وصاحباتها اللواتى تلهو معهن ثم يعود مرة أخرى بعد أن تناسى أنه قد صارحنا بحقيقة خياله ليؤكد أن الذكرى هى التى تجسد لعينيه هذه الابنة الصغيرة التى لا يزيد طولها عن خمسة أشبار فهى طفلة تحتاج الى حنان الاب وعطفه . والشاعر يلجأ الى هذا المدخل الرقيق حتى يعطفنا بقوة على محنته دون أن يجد نفسه مضطرا الى التصريح عن مشاعره مفضيا الينا من البداية بوجيعته . ان كبرياء الشاعر الفارس تظل عصية تغالب المكروه فى هذا المنفى البعيد فلا تنحنى ولا تضعف وحتى حين يفيض به الوجد فيصرح بعاطفته الابوية والانسانية لا تجدبدا من احترام هذه المشاعر القوية حين يقول :

فيا بعد ما بينى وبين أحبتى ويا قرب ما التفت عليه الضمائر
ولولا أمانى النفس وهى حياتها لما طار لى فوق البسيطة طائر

وكأن البيت الثانى انما هو اعتذار عما افضى به الشاعر من تخيل أحبابه يزورونه فى المحنة او هو يستحضرهم اليه وهنا تتجلى شخصية البارودى الشامخة التى يجعل تجربته مفارقة لتجارب الاقدمين من الشعراء ونجد تعبيره يختلف عن تعبيرهم أيضا . فالشعراء الاقدمون لا يأبهون للتبرير والتفسير والاعتذار عما فى نفوسهم هم ماضون وحدهم فى بيداء يطوف بها الموت والغربة من كل جانب وليس لهم ذلك المجتمع الذى كان لدى البارودى ولا كان لديهم هذا الضمير الحديث الذى يكبل الفرد بأغلال التحضر ومراعاة الاخرين فى الافضاء واعلان هوى النفس . ولكن البارودى لا يرى انه قد اتى شيئا يلام عليه فينصرف حتى لا تستولى عليه العاطفة العميقة الى التأمل الفلسفى الذى يتوكأ على ايمان عظيم بالله واستخفاف حقيقى بهذه الدنيا واعتقاد بأنها لاتحسن الا لتسىء ولا تزيد من قيمة المرء الا لتقتص منه بل لتقتله كما يذبح الجزار بهيمته بل انه يرى فيها صورة المقامر . هذه الصورة العصرية التى تنتمى الى عصرنا بمعاييره وقيمه . حتى وهو تتودد اليه وهى كثيرة التودد نراها جديرة بأن يتجنبها العاقل الرشيد .

كثيرة ألوان الوداد مليةبأن يتوقاها القرين المعاشر

هى امرأة خائنة هذه الدنيا أدن وهو منها على حذر . ولكنه لايلبث ان يتذكر قدرة الله وأمله ميه هذا الامل الدى تحيا به الامانى وتضىء الظنون به وسط المحن .

اذا المرء لم يركن الى الله فى الذى يحـــاذره من دهـــره فهو خاسر

ويبدو أن التماس الايمان انما هو حصنه الذى ينشده حتى لا تتداعى قواه التى يرى أن اختبارها فى الملمات هو أمر طبيعى . فكل ما يـكابده البارودى انما هو تكاليف السيادة ومطلب من مطالب العلا وداع من دواعى النفس القوية ثم يجاهر بنفسه برفضه للدنية رفض الغاضب الذى لا يتبل لنفسه الهوان وهو يبرهن على صحة دعواه برفع قيمة الشجاعة فى الحق وعدم الخوف من الدنيا .

اذا كنت تخشى كل شىء من الردى   فمن صحة الانسان ما فيه سقمه
فكل الذى فى الكون للنفس ضائر   ومن أمينه ما فجـــأته المخـــاطر

ويبدو أن هذا التمهيد كان مدخلا منطقيا للون من الفخر بالنفس ربما كان غير متوافق مع هذه الحكمة التى تزدرى الدنيا ولكنها أيضا فى موقف الدفاع عن النفس . فلو انه استسلم للزهد والحكمة التى تقول ببطلان الحياة لخلت القصيدة من القيمة الايجابية التى تنفع الحياة نفسها ومن هنا نرى أن هذه القصيدة لا تلتف على غرض شـــعرى واحد تستنفده وتفنيه وتفنى معــه بل هى شجرة كثيرة أوراق الحزن . بعيده الاغصان فى رؤيـــة تهـــزها ريح المحنـــة ولـــكنها لا تنكسر أبدا فى يد هـــذه الريح ورغم أن الشاعر يصف ظلمه المحنـــة التى تلم به فهو يرى ذلك أمرا عارضا .

وأى حســـام لم تصــبه كلالـــة !وأى جـــواد لم تخنـــه الحوافر

ويعلن عن ايمان بالحق ونكران للباطل :

ومـــا هى الا غمـــرة ثم تنجـلى غيابتهـــا واللـــه من شاء ناصـــر

والقصيدة التى تبدأ بالحلم وتعلو أمواجها الى الفخر تنتهى بالتسليم بعد أن يكون تد كشف بجلاء عن جوهر شخصيته وتجربته وعصره فى لغة بليغة تريك لغة عصور بأكملها ولكنها تظل ملكا أصيلا لشاعرها الذى أبدعها . ومن هنا لا نستطيع أن نقول أن القصيدة رغم جنوحها الى الحكمة والفخر والحنين والايمـــان بالله والتسليم متعددة الاغراض بل قصـــيدة واحدة الغرض بالغة الدلالة من ناحية الشكل الفنى ومن ناحية التجربة على شخصية الشاعر محمود سامى البارودى وهكذا تلتقى القصيدة مع القصائد القديمة وتفترق عنها كما يقترب الابن من الاب ويفترق عنه لتكون له قسماته واقدار حياته .

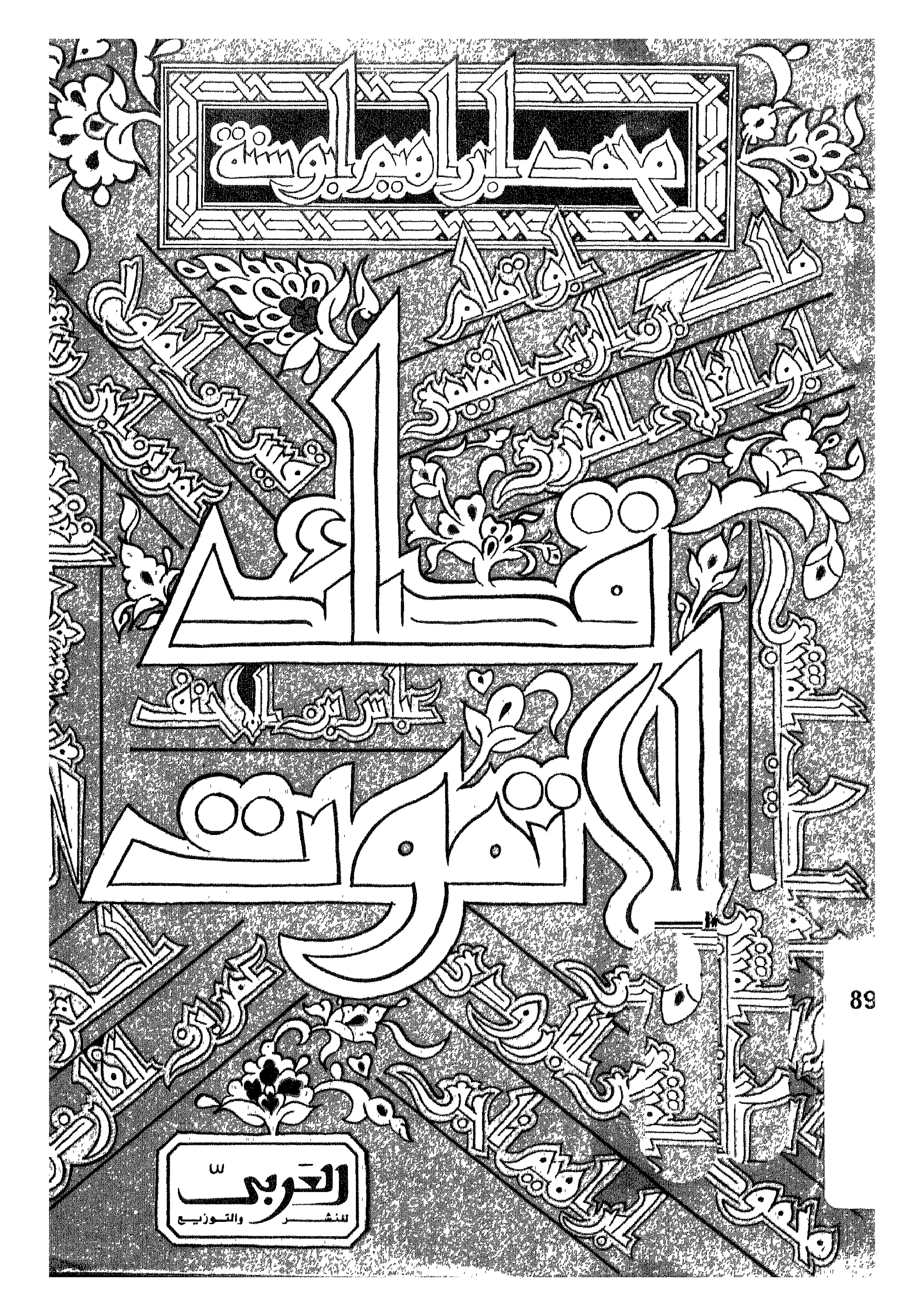
محمـــد ابراهيم أبو سنه

فهرس

رقم الايداع ٢٨٨٦/٨١.

الترقيم الدولى ٧ ـــ ٢٨ ـــ ٧٣١٥ ـــ ٩٧٧

مطبعـــــة
مؤسسة يوم المستشفيات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى ـــ القاهرة


محمد إبراهيم أبو سنة
قصائد لا تموت
العربي
للنشر والتوزيع
89